موازين الأفهام

في إدراك قيم الإسلام

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَة

الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رَقَمُ الإِيدَاعِ: ١٧٩١٠/ ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٥٧٢-٦٦١٨-٩٧٧-٩٧٨

الناشر

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة
٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧
فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة
ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥
٠٠٢٠١٠٩١٣٧٨٥٨٣
واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣
Dar_Elollaa@hotmail.com

موازين الأفهام
في إدراك قيم الإسلام

ميزان إبليس، ميزان القراءة في لغة الكلاب، ميزان الغلبة

د. محمد سعد قاسم
مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر

أعدَّه و اعتنى به وعلق عليه
محمد بن هاشم عبد العزيز

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

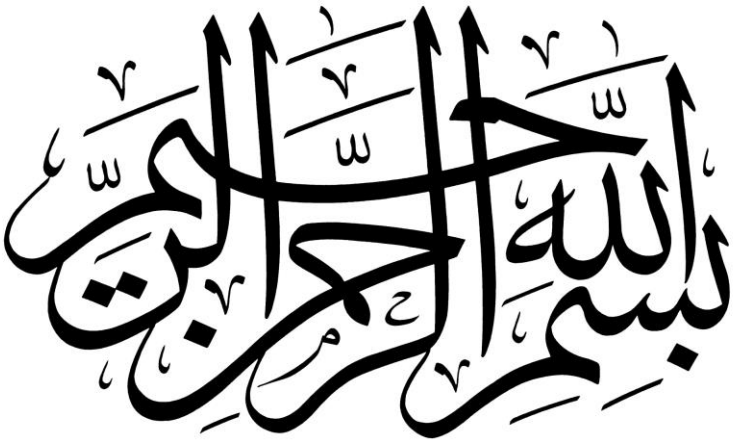
بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم
محمد هاشم عبد العزيز

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَصَبَ مِنْ كُلِّ كَائِنٍ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ بُرْهَانًا، وَتَصَرَّفَ فِي خَلِيقَتِهِ كَمَا شَاءَ عِزًّا وَسُلْطَانًا، وَاخْتَارَ الْمُتَّقِينَ فَوَهَبَ لَهُمْ بِنِعْمَتِهِ أَمْنًا وَإِيمَانًا، عَمَّ الْمُذْنِبِينَ بِرَحْمَتِهِ عَفْوًا وَغُفْرَانًا، وَلَمْ يَقْطَعْ أَرْزَاقَ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ جُودًا وَامْتِنَانًا، وَأَعَادَ شُؤْمَ الْحَسَدِ عَلَىٰ الْحَاسِدِ لأَنَّهُ ارْتَكَبَ عُدْوَانًا.

رَوَّحَ أَهْلَ الإِخْلاصِ بِنَسِيمِ قُرْبِهِ، وَحَذَّرَ يَوْمَ الْقِصَاصِ بِجَسِيمِ كَرْبِهِ، وَأَكْرَمَ الْمُؤْمِنَ بِهِ إِذْ كَتَبَ الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ، وَدَعَا الْمُذْنِبَ إِلَىٰ تَوْبَةٍ لِغُفْرَانِ ذَنْبِهِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ عَبْدٍ لِرَبِّهِ مُعْتَذِرٍ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَأُقِرُّ بِتَوْحِيدِهِ إِقْرَارَ مُخْلِصٍ مِنْ قَلْبِهِ، وَأُصَلِّي عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، أما بعد.

- فإن الله سبحانه وتعالىٰ جعل له سنة في خلقه ثابتة كما قال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣]، ومن سنن الله في خلقه أن قسّم الأرزاق فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، ولا شك أنَّ من تقسيم الرزق تقسيمَ الأفهام قال تعالىٰ: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وكذلك بيّن ربنا سبحانه أنه ليس كل الناس يُعطىٰ القدرة علىٰ الاستنباط

فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] فالاستنباط والفهم رزق من الله سبحانه وتعالىٰ، وهذه الموازين التي بين يديك أيها القارئ الكريم هي نوع من أنواع الفهم والاستنباط، امتنَّ الله بها علىٰ رجل أحسبه ولا أزكيه علىٰ الله من أهل الفهم.

وهذه الموازين لها من اسمها نصيب فهي موازين كاشفة وضابطة لكيفية إدراك قيم الإسلام.

۞ طريقة صاحب الموازين:

١- إما أن يستخرج ميزانًا كما في ميزان: (إبليس)، وميزان: (القراءة في لغة الكلاب).

٢- أو يصوغ ميزانًا كما في ميزان: (الغلبة).

والموازين بتمامها تحتاج إلىٰ تأمل وتفكر وبسط للمعنىٰ المراد.

- ومن هنا وبتكليف وإذن من أستاذي وشيخي صاحب الموازين حفظه الله، استخرت الله رب العالمين، وطلبت منه سبحانه المدد والعون، وقمت بالآتي:

١- تواصلت مع صاحب الموازين وتحدثت مع فضيلته حول كل ميزان، وكنت أقوم بتسجيل الحوار بيني وبين فضيلته لآخذ الخطوط العريضة التي يريد إيصالها حفظه الله من خلال الميزان.

٢- جعلت الميزان متنًا، ووقفت مع كل جملة أو فقرة من الميزان،

تحتاج التوضيح والشرح بناء علىٰ ما قرره صاحب الموازين، وكذلك ما امتن الله علىٰ عبده باستنباطه وفهمه.

٣- ذكرت من الشواهد القرآنية والنبوية ما يزيد الأمر وضوحًا، ويجعل كل فقرة مادة سهلة ميسورة بفضل الله تعالىٰ.

٤- بعض الموازين فيها نقاط متعددة، هذه النقاط هي عبارة عن رؤوس أقلام لأفكار عميقة، فأعلق عليها تعليقاتٍ تجعل النقطةَ الواحدةَ موضوعًا، وأسهب فيها أحيانًا بحيث إذا أراد متحدث أن يتناول كلَّ جانب من جوانب الميزان بتفصيل، فإنه بفضل الله يستطيع أن يسهب في كل نقطة، أو فقرة من فقرات الميزان ليصل بالفكرة إلىٰ أوسع شريحة من الناس بعد فضل رب العالمين.

٥- قمت بتخريج الآيات وعزوتها إلىٰ مواضعها في سور القرآن الكريم.

٦- قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روىٰ الحديث من أئمة هذا الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرجه مستصحبًا ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف أو..... وهذا في الأعم الغالب.

٧- كنت حريصًا في بعض الفقرات علىٰ الاستشهاد بالقصص والمواقف التي توضح الصورة المرادة والفكرة المرجوة، فذكرت مواقف من حياة الرسول ﷺ، ومواقف من حياة الأنبياء الكرام عليهم السلام، ومواقف من حياة الصحابة والتابعين، مع مراعاتي أن آتي بالمواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي علىٰ انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون

شطط أو زيغ أو مغالاة.

٨- وفي بعض الفقرات ذكرت من كلام الشعراء والأدباء ما يخدم الموضوع مع حرصي علىٰ انتقاء ما كتبت من شعر يساعد ويخدم الموضوع.

٩- كنت حريصًا علىٰ عرض كل ما تفضل الله بتمامه علىٰ صاحب الموازين، فما أقرَّه فضيلته أثبته، وما نصح فيه بشيء أعدته بفضل الله بناء علىٰ ما رآه جزاه الله خيرًا.

وختامًا أقول:

ليس يضرني وقوف أهل المعرفة علىٰ ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّا فمن الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان علىٰ من خلق الله من عجل، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

لقد مضيت وراء الركب ذا عَرَجٍ ... مؤمِّلًا جبر ما لاقيتُ من عَرَج
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب الورىٰ في الناس من فرِجِ
وإن ضللتُ بقفر الأرض منقطعًا ... فما علىٰ أعرج في الناس من حَرَجِ

وأسأل الله تعالىٰ أن يتقبل من المؤلف حفظه الله جهده، وأن يبارك له في صحته وأهله، وأن يرزقه العمل الصالح وحسن الخاتمة.

كما أسأل الله أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن

يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه نصيبًا وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه ببنانه ورضيه بجنانه
الفقير إلى عفو ربّه العزيز
محمد هاشم عبد العزيز
يوم الأحد ٨ ذو الحجة ١٤٣٩هـ
الموافق - ١٩أغسطس ٢٠١٨ م
٠٠٢٠١٠٠٣٠٦٢٠٦٥

* * *

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، أدىٰ الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين، فاللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبيًا عن أمته، ورسولًا عن دعوته ورسالته، وصلِّ اللهم وسلم وزد وبارك عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأحبابه وأتباعه، وعلىٰ كل من اهتدىٰ بهديه واستن بسنته واقتفىٰ أثره إلىٰ يوم الدين .وبعد فإن أفضل ما قدمه النبي ﷺ للعالمين جميعًا هو التطبيق العملي لمنهج تربوي تام كامل نزل به الروح الأمين من عند الله سبحانه وتعالىٰ.

ومن المعلوم أن المناهج التربوية لها قواعدها التي تؤسس عليها، وضوابطها التي تحكم كيفية تطبيقها، وموازينها التي تُقَيَّم وتُقَوَّم من خلالها . ولا شك أن المجتمع الإسلامي الأول – أعني القرون الثلاثة الأولىٰ – من بعثة النبي – ﷺ – قد التزم الناس – بسوادهم الأعظم – فيه بموازين المنهج

التربوي حفظًا، ووعيًا، وتطبيقًا. كما دعا النبي - ﷺ - لكل من التزم بموازين منهجه بنضارة الوجه، كما في الحديث الذي رواه ما يزيد عن عشرين صحابيًّا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**».(١)

- ومن هنا أصبح للمجتمع الإسلامي قِيَمٌ تميزه عن غيره من المجتمعات، ويرتفع بها من حضيض الأرض إلىٰ أن يطاول السماء.

غير أن قبسة الاقتداء بالنبي ﷺ، والسلف الصالح رضوان الله عليهم قد ضعفت قوتها عند المتأخرين من هذه الأمة، مما نتج عن هذا الضعف فتور في الاتباع وجرأة في الابتداع، حتىٰ صار الواقع الذي نعيشه الآن أشبه ما يكون بمعركة حقيقية بين رغبة في تحصيل الوعي والتربية الصحيحة علىٰ أساس من المنهج النبوي وبين رغبة في تغييب الوعي علىٰ أساس من التحلل من كل الموازين والقيم الصحيحة تحت شعارات براقة زائفة.

ومن هنا. ..فقد رغبت في أن أنال شرف الجندية في معركة بناء القيم، من خلال النظر والتدبر في موازين القرآن، والسنة، وميراث الأئمة والعلماء، مع

(١) مسند الشافعي: (ص: ٢٤٠)، واللفظ له، مسند أحمد: (١٣٣٥٠)، صحيح الجامع: (٦٧٦٥).

ربط هذه الموازين بالواقع المعاصر.

وأسأل الله ﷻ بواسع فضله وكرمه أن يتقبل ذلك، فبه وحده أستعين.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

كتبه د/محمد سعد عبد المجيد قاسم

جوال/٠١٠٠٢٨١٠٣٦٥

٧ من ذي الحجة ١٤٣٩ هـ

الموافق ١٨/٨/٢٠١٨م

٠١٠٠٢٨١٠٣٦٥

* * *

مِيزَانُ إِبْلِيس

✍ **يقول صاحب الموازين حفظه الله**: الضربة القاضية لإبليس علىٰ يد ابن سمعون، وهذا في حلقة نقاشية مَنامِيَّة من أعجب المناقشات العلمية بين إِمَامَيْن وإبليس في أخطر وأهم قضية:

✍ **قال الإمام يحيىٰ بن هُبَيْرَة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، أبو المظفر، عون الدين (المتوفىٰ: ٥٦٠هـ)**:

رُوِيَ عن ابن سمعون رحمه الله – هو الإمام أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي وسمعون: هو لقب جده إسماعيل. (المتوفىٰ: ٣٨٧هـ) أنه قال: رأيت إبليس – لعنه الله– في المنام علىٰ صورةٍ – كَنَّىٰ عنها.

✍ **قال ابن سمعون**: وكنت قد سمعت عن إبليس أنه قال: عَلَامَ يَلومُني اللَّائِمون، وإنما الْمَعصيةُ وَصْفِي، والرَّحمةُ وَصفُه، فَأَتَيْتُ وصفي؛ وتَعَلقْتُ بِوَصفِه؟

✍ **قال ابن سمعون**: فسألته في المنام عن هذا الكلمات التي بلغتني عنه في اليقظة.

قلت له: أأنت قلت هذا الكلام؟

فقال: نعم.

فقلت له: هذا من جهلك يا جاهل.

ثم تجاوز ابن سمعون إلىٰ باقي الكلام في المنام.

فقلت أنا: ما الذي أنكر ابن سمعون علىٰ إبليس من هذه الكلمات، وظاهرها فيه رَسُومَة.

فنظرت فإذا إنكار ابن سمعون في موضعه.

وذلك أن قول إبليس: (المعصية وصفي والرحمة وصفه)، فإنه جيء بهذا القول من حيث إنه ظَنَّ أنه فَلَجَ بِالْحُجَّة.

لأني قلت له – ومَثَّلْتُهُ كأنه جالسٌ بين يدي: يا عَدُوَّ الله، ما وَصْفُكَ إِلَّا الْمَعصِيَة خاصَّة؟ أَوَ لَيْس مِنْ وَصفِكَ الطاعة أيضًا؟

وَرَبُّك، أليس من وصفه الانتقام أيضًا كما من وصفه الرحمة؟

فَلِمَ اخترت لِرَبِّك من وَصْفَيْكَ أَقْبَحَهُما؟

واخترت لنفسك من وَصْفَيْ رَبِّكَ أَرْفَقَهُما؟

فحينئذ قاتلك الله، لو أن الخلق يقتدون بك لَمَا كان يكون لله سبحانه علىٰ وجه الأرض طائع، ولا من انتقامه خائف.

فعرفت أن ابن سمعون إنما أنكر عليه في موضعه.

ثم ذكر ابن سمعون بَقِيَّةَ المنام فقال:

إني قلت له: يا جاهل، تَدرِي أَيَّ عذابٍ أَنْتَ مُعَذَّب؟

فقال لي: نعم

فقلت له: بأي عذاب أنت معذب؟

فقال: بعذاب المخالفة

قال: فقلت له أيضًا: وهذه أيضًا مما تدل علىٰ زيادة جهلك.

أَمَا مَا خَالَفَهُ غَيْرُك؟ أَمَا خَالَفَهُ آدم فتاب عليه واجتباه وهداه؟

قال: فقال لي – أي إبليس – فبأي عذاب أنا معذب؟

قال: فقلت له: أنت معذب بعذاب المقت.

قال: فصرخ صرخة فاستحال قِرْدًا.

قال: ثم قلت له: إنما سُمِّيتَ إبليس؛ لأن اشتقاق معناك كان مودعًا في نسمتك – أو نحو هذا الكلام.

قال: فقال لي: شيخ، فماذا يكون تدبيري؟

قال: فقلت له: يا هذا تَنَزُّلُكَ مَعَ أَمْرِه، وَتَسَلُّمُكَ إلىٰ حُكْمِه.

قال: ثم قلت له: يا جاهل، يا عديم العلم، لَأَجْهُلُ مِنْكَ مَنْ ظن أنك شَمَمْتَ ريح العلم، أَلَيْسَ بلغ من جهلك أنك لما قال لك ربك اسجد لآدم أَبَيْت؟

ثم عَلَّلْتَ إِبَاءَكَ أَنْ قلت: «أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين».

وَيْلَك. بَلَغَ من أمرك أنك تُسَوِّي أنت لربك تدبيره وتُتِمَّ لَهُ أموره.

قلت أنا – أي ابن هبيرة – عند هذا الكلام: يا جاهل، أنت بزعمك خَيْرٌ من آدم جِنسًا – في ضمن اعتراضك هذا– ومِمَّنْ هو خيرٌ تدبيرًا.

قال ابن سمعون: فاستخذىٰ واستسلم.

ثم قال لي بعد ذلك: يا شيخ، اتركني وأهل البدع.

ثم انقطع مَنَامُ ابن سمعون.

فرأيت أنا في المنام شرح الحال أنه قال له: دعني وأهل البدع، أن معناه: أنه أراد أن أهل البدع يأتون ما يأتون من مساخط الله -سبحانه- في مقام لا يتوبون منه، ولا يعتذرون عنه.

فأراد الفاسق - يعني إبليس - من ابن سمعون أن لا ينبه علىٰ ما عليه أهل البدع من الضلالة، ظنا منه أن ابن سمعون قد بلغ بغضه لأهل البدع وشنآنه إياهم إلىٰ الحد الذي لا يستنقذهم بعمله من يده، فيتركهم معه.

وكان مقام ابن سمعون - رحمه الله - وإن كان لَهُمْ - أي أهل البدع - مبغضًا من حيث البدعة؛ فإنه لهم راحمًا من حيث المعرفة. فهو يحرص علىٰ هداهم.

فقد كان الإمام أحمد - رضي الله عنه - أَعْلَىٰ مقامًا من ابن سمعون حيث كان من دعائه: اللهم ما كان من هذه الأمة علىٰ غير الحق وهو يظن أنه علىٰ الحق فرده إلىٰ الحق حتىٰ لا يضل من هذه الأمة أحد.(١)

قلت: رحم الله علماء وأئمة سلفنا الصالح، وغفر لنا جهلنا بعلومهم وجهودهم، وقيض لهذه الأمة من يظهر كنوزها المكنونة للعالم بفهم ووعي صحيح.

* * *

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ٣٨٠- ٣٨٢).

۞ شرح الميزان:

✍ **قال الإمام يحيىٰ بن هُبَيْرَة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، أبو المظفر، عون الدين (المتوفىٰ: ٥٦٠هـ)**: روي عن ابن سمعون ﷺ أنه قال: رأيت إبليس لعنه الله في المنام علىٰ صورة كنَّىٰ عنها. أي أنه رآه علىٰ صورة قبيحة كنَّىٰ عنها.

✍ **قال ابن سمعون**: وكنت قد سمعت عن إبليس أنه قال: علام يلومني اللائمون، وإنما المعصية وصْفِي، والرحمة وصْفُه، فأتيت وصْفِي؛ وتعلقت بوصْفِه؟

– وهنا يلقي إبليس شبهة خطيرة: فيقول: علام يلومني اللائمون: أي لماذا يلومني من يلومني ويعتب عليَّ.

وإنما المعصية وصْفِي: أي أن المعصية وصف لازم له لعنه الله.

والرحمة وصْفه: أي أن الرحمة وصفه سبحانه وتعالىٰ، فالله هو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣].

فأتيت وصْفِي: أي أتىٰ إبليس المعصية وهذا وصفه وطبعه. هذا علىٰ حدِّ زعمه.

وتعلقت بوصْفِه؟ أي أنه متعلق بوصف الله وهو الرحمة. (١)

✍ **قال ابن سمعون**: فسألته في المنام عن هذا الكلمات التي بلغتني عنه

(١) وفي هذا الكلام شبهة خطيرة ستتضح لنا بعد قليل بأمر الله تعالىٰ.

في اليقظة.

قلت له: أأنت قلت هذا الكلام؟ فقال: نعم. فقلت له: هذا من جهلك يا جاهل.

- ونقف مع قول ابن سمعون: فسألته في المنام عن هذا الكلمات التي بلغتني عنه في اليقظة. قلت له: أأنت قلت هذا الكلام؟

- ولنتأمل: ابن سمعون يتكلم مع من؟

إنه يتكلم مع إبليس رأس الكفر والضلال، ومع ذلك يسأل إبليس ليتثبت منه فقال: أأنت قلت هذا الكلام؟

- وهذا ملمح خطير ودقيق ومنهج إسلامي رباني، هو منهج التثبت.

۞ أهمية التثبت وخطورته:

إن للتثبت أهمية عظيمة في حياة الناس، فعندما يبني الإنسان تصوراته، ويصدر أحكامه علىٰ أساس من العلم وليس الظن والتخريص، فإن ذلك يحميه من الوقوع في ظلم الناس، واتهامهم في أعراضهم وأموالهم.

وقال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

فقد بين الله لنا في هذه الآية، أن التثبت والإعراض عن لغو الكلام، سبب من أسباب الفلاح، وأن ذلك صفة ملازمة للمؤمنين.

وفي المقابل فإن عدم التثبت والخوض في لغو الكلام، سبب من أسباب الهلاك.

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٤٠].

- وأي هلاك أعظم من أن يسوي القرآن بين الكفار والخائضين معهم في الحديث من غير تثبت ولا ترو، ولا تفحص.

وقد أشارت الأحاديث النبوية في أكثر من مناسبة إلىٰ خطورة الكلام من غير تثبت وأثره: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ،..... ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**» قُلْتُ: بَلَىٰ يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**». (١)

فهذا الحديث يدل علىٰ أن التثبت وضبط اللسان هو جماع الخير كله، وأن من ضبط لسانه فقد حاز الخير كله، لأن الثرثرة باللسان هي أكثر ما يدخل الناس النار.

۞ مكانة التثبت في القرآن الكريم:

تكمن مكانة التثبت العظيمة في القرآن الكريم، من خلال الفوائد التي تعود علىٰ الفرد والمجتمع والأمة، والمتمثلة في الأمور التالية:

(١) سنن الترمذي: (٢٦١٦)، وانظر: صحيح الجامع: (٥١٣٦).

❍ السلامة من الأخطاء:

إن التثبت يجعل الإنسان المسلم قريبًا من الصواب، وسالمًا من الأخطاء والعثرات، فلا يتعجل ولا يتسرع في نشر الأخبار حين سماعها، بل يتأمل ويتبين قبل أن يتكلم، وينظر متفحصًا هل هذا الكلام فيه مصلحة فيقدم عليه، أو فيه مفسدة فيحجم عنه ويتوقف، لأنه لم يصدر عن علم.

كما أنَّ التثبت فيه حماية للناس من الغيبة والنميمة، والألفاظ المؤذية التي تؤدي إلىٰ الفتن، والإسلام يمنع المؤمنين من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات:٦].

❍ تطهير المجتمع المسلم من المنافقين:

التثبت يطهر المجتمع المسلم من المنافقين وإرجافاتهم التي لا تنفك عن الكذب، وإحداث البلبلة والفتنة، والسعي إلىٰ إيقاع المسلمين في الحيرة والاضطراب، وينفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة، كما أنه يصون كرامة الأفراد، ويحفظ حرياتهم، ودماءهم، وأموالهم، وأعراضهم، ويقيم عليها سياجًا من الأمان.

فالتثبت يعلم المسلمين أن يضبطوا ألسنتهم فلا تمتد إلىٰ الناس بأي سوء، ولا يشيعون الفاحشة في المجتمع المسلم، مما يؤدي إلىٰ التماسك وثقة المؤمنين ببعضهم، وعدم السماح للمنافقين بالتغلغل بين صفوفهم.

○ الحفاظ على وحدة الأمة:

إن التثبت يحافظ على وحدة الأمة الإسلامية، ويستأصل أسباب المنازعات فيما بين أفرادها.

ذلك أن القرآن الكريم يوجه المؤمنين إلى ضرورة التثبت من كل كلمة يقولها الإنسان، فبسبب كلمة طائشة لا يلقي لها بالًا قد يتفرق الشمل، فتحل العداوة والبغضاء، وبسبب كلمة لا يلقي لها بالًا قد تتآلف القلوب، وتزول الكراهية والأحقاد، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء:٥٣].

فالله سبحانه يأمرنا أن نتثبت في أقوالنا، فلا نتفوه من القول إلا بأحسنه، وأن نقابل الكلمة السيئة بالكلمة الحسنة، لأن ذلك يؤدي إلى مزيد من توحيد الصف، ويحول العداوة والبغضاء إلى ألفة ومحبة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت:٣٤].

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** ثم تجاوز ابن سمعون إلى باقي الكلام في المنام، فقلت أنا[1]: ما الذي أنكر ابن سمعون على إبليس من هذه الكلمات، وظاهرها فيه رسومة.

وهذا الجزء من كلامه يحتاج إلى تدبر وتدقيق ولنتأمل: يقول ابن هبيرة: ما الذي أنكر ابن سمعون على إبليس من هذه الكلمات، وظاهرها فيه

(١) القائل ابن هبيرة.

رسومة(١).

- ومن هنا يجب التنبه إلىٰ الكلام الذي ظاهره يكون مؤثرًا مزخرفًا، يؤثر في سماع كثير من الناس ويقتنعون به، وهذا لتسرعهم وعدم فهمهم، أو لقلة فهمهم، ولقد حذرنا القرآن الكريم من زخرف القول الذي يستخدمه شياطين الإنس والجن لإضلال الناس، قال الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، كما حذرنا الرسول فقال ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ**».(٢)

«**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي ثَلَاثٌ: مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَرِجَالٌ يَتَأَوَّلُونَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَزَلَّةُ عَالِمٍ**» ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ، إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، فَاشْكُرُوا اللهَ، وَخُذُوا مَا تَعْرِفُونَ مِنَ التَّأْوِيلِ، وَمَا شَكَكْتُمْ فِيهِ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَانْتَظِرُوا بِالْعَالِمِ فَيْئَتَهُ، وَلَا تَلَقَّفُوا عَلَيْهِ عَثْرَةً**».(٣)

○ الجن والإنس من الشياطين يتقاولون فيما بينهم زخرف القول:

إنَّ شياطين الإنس والجن يتعاون بعضهم مع بعض ويوحي بعضهم إلىٰ بعض، زخرف القول قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ

(١) أي: فيه تأثير في مسامع الناس.
(٢) مسند أحمد: (٣١٠)، وانظر: صحيح الجامع: (١٥٥٤).
(٣) المراسيل لأبي داود: (ص: ٣٥٨).

﴿ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وهو الكلام الحسن المعسول، والكلام اللين الجميل- يغرون به الناس ويخدعون به، لكن هذا الكلام الذي يخدعون به لا يضر إلا الذين لا يؤمنون بالآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: ١١٣].

❍ زخرفة الباطل طريقة وحيلة للشيطان:

✍ **قال ابن القيم**: ومن حيله ومكايده: الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة، التي هي زبالة الأذهان، ونُحاتة الأفكار، والزبد الذي يقذف به القلوب المظلمة المتحيرة، التي تعدل الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، قد تقاذفت بها أمواج الشبهات، ورانت عليها غيوم الخيالات، فمركبها القيل والقال، والشك والتشكيك، وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من اليقين يعول عليه، ولا معتقد مطابق للحق يرجع إليه، يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غرورًا، فقد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا، وقالوا من عند أنفسهم فقالوا منكرا من القول وزورا فهم في شكهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تلته الشياطين علىٰ ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يتحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل واتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل. (١)

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١/ ١١٨).

✍ **أيها القارئ الكريم:**

اعلم أن من أراد الثبات أمام زخرف القول ورسومته، فعنده ثوابت وعلىٰ رأسها كلام الله، كلام خالق الأكوان، كلام خالق الإنسان، كلام الخبير العليم، كلام الذي عنده أسباب سعادتنا وسلامتنا قال تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فينبغي علىٰ الإنسان ألا يؤخذ بزخرف القول الذي يدعو إلىٰ مناقضة ما في الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٣].

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** فنظرت فإذا إنكار ابن سمعون في موضعه.

- وهنا يعلمنا ابن هبيرة، ويضع لنا ميزانًا يوضح فيه ما يجب علىٰ طالب العلم في كيفية تلقي العلوم، وفي كيفية تلقي أقوال العلماء وردودهم، فإذا لم يفهم طالب العلم كلام العلماء، فليحمل كلامهم علىٰ الصحة والصواب، ويتهم نفسه أولًا بقصور الفهم.

فبدلًا من أن يحكم حكمًا يعلنه أمام الناس، فليتأنىٰ، ولينظر، وليتأمل، ويعيد النظر مرة بعد مرة، حتىٰ لا يتجرأ علىٰ اتهام العلماء بالتقصير، أو بالقصور، أو بعدم الفهم. وهذا ميزان أدبي جميل.

✍ **والآن لنا وقفة مع قول ابن هبيرة:** فنظرت.

النّظر يقع علىٰ الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما

كان بالبصائر كان للمعاني. (١)

والمعنىٰ المراد هنا: نظرت في كذا. أي: تأمّلته. وهذا عين ما فعله ابن هبيرة لما تأمل ونظر في كلام ابن سمعون.

✍ **ثم يقول ابن هبيرة:** فإنه جيء بهذا القول من حيث إنه ظَنَّ أنه فَلَجَ(٢) بِالْحُجَّة.

- وهنا يبين لنا ابن هبيرة خبث إبليس، وتلبيسه الحق بالباطل، وتلبيس الحق بالباطل أمر نهىٰ الله عنه فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ٤٢].

وهنا يتلاعب إبليس بالكلام، ويحرف الكلم عن مواضعه، ليضل العقول، والمشكلة أن كثيرًا من الناس انخدعوا بهذا الكلام، وبما يشبهه، فآمنوا بالباطل، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١]. فالآيات تحدثنا عن طائفة من الناس مؤمنة. ولكن بماذا؟ بالباطل وبالجبت والطاغوت.

وهذا يفسر لنا التضحية العجيبة التي يقوم بها دعاة الباطل من أجل الترويج لباطلهم، وهذه التضحية ما هي إلا نتاج إيمان عميق وقر في قلوبهم تجاه هذا الباطل.

---

(١) لسان العرب ٥/ ٢١٨.
(٢) فاز وظفر.

✍ **وهنا أقول مستعينًا بالله:**

إن السبب الرئيس في ضياع أهل الباطل هو عدم إدراكهم للروابط الصحيحة بين المعلومات.

ولذلك هم جهال، لأن العلم هو: الربط الصحيح بين المعلومات. (١)

✍ **ويوضح ابن القيم المشكلة فقال:** إنَّ العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه. فإنَّه إذا قَبِل الباطل أحبّه ورضيه فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذّبه إن قَدِر علىٰ ذلك وإلا حرّفه. (٢)

ولنتأمل هذه المواقف لنرىٰ كيفية الربط غير الصحيح بين المعلومات، وكيف يهلك أصحابه.

١ - أبو جهل لعنه الله:

خرج أبو جهل إلىٰ بدر مع المشركين، وقال يومئذ: اللَّهُمَّ أقطَعنا لِلرَّحِمِ، وَآتَانَا بِمَا لَا يُعْرف، فأحِنْه(٣) الغَداةَ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ [الأنفال: ١٩]، واستفتاحه هو قوله هذا، فقتله الله بيد معاذ بن عمرو بن الجموح، وبعض بني خفراء، ضرباه، ووقف عليه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، ثم جاء إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، قد قتلت أبا جهل، فقال: «**الله الّذي لا إله غيره، لأنت قتلته؟**» قال: نعم، فاستحفه الفرح

(١) هذا التعريف قاله وارتضاه صاحب الموازين حفظه الله.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٥٥.
(٣) فأهلكه.

ثم قال: «**انطلق فأرينه**»، فانطلق حتىٰ قام به علىٰ رأسه، فقال: «**الحمد لله الّذي أخزاك، هذا فرعون هذه الأمة، جروه إلىٰ القليب**»، فجروه، ونفل عبد الله بن مسعود سيفه. (١)

- فأبو جهل ظنَّ أنه صاحب حق وأنه يريد الخير لقومه وعشيرته، ولكنَّ الحقَّ في غير ما ظنه واعتقده أبو جهل، فالذي جاء بالخير والنجاة لهم هو الرسول ﷺ، بل كان النبي ﷺ حزينًا علىٰ قومه كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ [الشعراء: ٣].

فكلام أبي جهل يخرج من نفس معين كلام إبليس وقال هذا القول من حيث إنه ظَنَّ أنه فَلَجَ بِالْحُجَّة.

٢ - ابن نبيِّ الله نوح عليه السلام:

قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

ولنتأمل هذه الآية: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ [هود: ٤٣] هذا عقل، ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ﴾ [هود: ٤٣]، هذا وحي ﴿ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ ﴾ [هود: ٤٣]، هذه هي النتيجة.

(١) إمتاع الأسماع (٦/ ٢٣٨).

فكل من قدّم عقله علىٰ نصوص الكتاب والسنة الصحيحة غرِق في ظلمات بحار الأهواء والبدع، ومن تعود معارضة الشرع بالعقل لا يستقر في قلبه إيمان.

- وهنا سلك ابن نبيِّ الله نوح نفس المسلك الذي سلكه إبليس، وسلكه كذلك أبو جهل، وقدَّم رأيه ولم يربط الربط الصحيح بين المعلومات فكان من المغرقين.

٣ - عمرو بن العاص رضي الله عنه :

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ جَيْشٍ، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما، فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**وَمَا تُرِيدُ إِلَىٰ ذَلِكَ؟**» قُلْتُ: أُحِبُّ أَنْ أَعْلَمَ. قَالَ: «**عَائِشَةُ**» قُلْتُ: إِنَّمَا أَعْنِي مِنَ الرِّجَالِ، قَالَ: «**أَبُوهَا**». (١)

وفي لفظ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**» قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ، قَالَ: «**أَبُوهَا**». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**عُمَر**» فعد رجالًا. فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم». (٢)

وهنا ربط غير صحيح من الصحابي الجليل عمرو بن العاص، لأنه لما بَعَثه رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ جَيْشٍ، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما، ظنَّ أنه أحب إليه منهما، فسأل هذا السؤال، وصحح له الرسول ﷺ.

(١) أمالي ابن بشران: (ص: ١٥٦).
(٢) صحيح السيرة النبوية: (ص: ٣٩٩).

٤ - من يعطيهم الله المال والبنين وهم على باطل:

هناك من الناس من يحسب أن عطاء الله له إنما هو من محبة الله له، ويظن أنَّ له مكانةً عند الله ﷻ، وهذا ربط غير صحيح بين المعلومات، وفهم غير دقيق، والنتيجة جهل عندهم وضياع، ويصحح المولىٰ تبارك وتعالىٰ هذا الفكر، وهذا المنطق فيقول تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٤ - ٥٦].

✍ **ثم يقول ابن هبيرة:** لأني قلت له (١) - ومَثَّلْتُهُ كأنه جالسٌ بين يدي: يا عَدُوَّ الله، ما وَصْفُكَ إِلَّا الْمَعصِيَة خاصَّة؟ أَوَ لَيْس مِنْ وَصفِكَ الطاعة أيضًا؟

وهنا يعلمنا ابنُ هبيرة أنَّ الخلق من الجن والإنس لهم وصف الطاعة، كما أن لهم وصف المعصية.

- واللهُ وضَّح الطريق للجميع فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ١٠]، فالطريق واضح، ولكنَّ المشكلة في العبد. هل أطاع أم عصىٰ؟.

ومن أطاع كان من السعداء بفضل الله، ومن عصىٰ كان من الأشقياء بعدل الله.

✍ **يقول الإمام أحمد بن أبي الحواري:** ليس بالطاعة سُعدوا، ولكن

(١) القائل هنا ابن هبيرة.

بالسعادة أطاعوا، وليس بالمعصية شقوا، ولكن بالشقاوة عصوا. أَهْلُ الطَّاعَةِ لَيْسَ بِالطَّاعَةِ سَعِدُوا، وَلَكِنْ بِالسَّعَادَةِ أَطَاعُوا، وَإِنَّ أَهْلَ المَعَاصِي لَيْسَ بِالمَعَاصِي شَقُوا، وَلَكِنْ بِالشَّقَاوَةِ عَصَوْا. (١)

السعادة والشقاوة متقدمة علىٰ الفعل والجزاء، فالسعيد من سعد وهو في بطن أمه، والشقي من شقي وهو في بطن أمه.

✍ **ثم يقول ابن هبيرة:** وَرَبُّك، أليس من وصفه الانتقام أيضًا كما من وصفه الرحمة؟

✍ **وهنا لنا وقفة مع كلام ابن هبيرة:**

اللهُ سبحانه خلق الخلق، وبيَّن الحكمة من الخلق فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٧]، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل ليعلموا الناس فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وبيَّن ربنا لنا صفاته وأسماءه، حتىٰ نتعبد بها فقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟

(١) الطيوريات (٣/ ١٠٣٥).

فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤].

ومن عَرَفَ الأسماء الحسنىٰ عَرَفَ أن الله رحمن رحيم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣]. وغير ذلك من الآيات.

- وكما يعرف العبد أن الله رحمن رحيم سيعرف أن الله عزيز، ومنتقم، وشديد العقاب.....

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

- **فهذان نوعان من الآيات:**

النوع الأول: يتكلم عن رحمة الله تعالىٰ. **النوع الثاني**: يتكلم عن عقاب الله تعالىٰ.

ولكن ثمة نوع ثالث من الآيات يجمع لنا الصورتين لنعرف كيف نعبد الله تعالىٰ.

لأن العبد لو أخذ بآيات الرحمة فقط كان علىٰ منهج إبليس، ولو أخذ

بآيات العقاب أيس من رحمة الله تعالىٰ، وليس هذا مرادًا ولا سابقه.

إنما المنهج المراد أن نعرف رحمة الله، وعذابه وانتقامه، حتىٰ نعبد الله بالخوف والرجاء، ولقد جمع الله بين الأمرين في آيات كثيرة فقال تعالىٰ: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٧]. ومن عرف ذلك عبد الله بالخوف والرجاء.

- ولنتأمل كيف يريد إبليس أن يفتن الناس فلا يبقىٰ هناك أحد من الله خائف، لأن إبليس لم يذكر من صفات الله إلا الرحمة، وهذا منهج مشىٰ عليه بعض الغلاة فيقولون: الله رحيم ولن يعذبنا ونجدهم يتجرؤون علىٰ جناب الله تعالىٰ، بحجة أن الله رحيم، ولو عرف هؤلاء ربهم حق المعرفة لجمعوا بين الأمرين الخوف والرجاء بالإضافة إلىٰ المحبة له سبحانه وتعالىٰ.

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** فَلِمَ اخترت لِرَبِّك من وَصْفَيْكَ أَقْبَحَهُما؟ واخترت لنفسك من وَصْفَيْ رَبِّكَ أَرْفَقَهُما؟

وهنا نرد علىٰ الغلاة الذين يقولون: نحن لا نعبد الله خوفًا من عذابه ولا

طمعًا في جنته! ولا نبالي بالجنة ولا بالنار، وإنما نعبد الله محبة لله! وبعضهم يقول: إني أذوب في محبة الله! وهذا ليس هو الاعتقاد الصحيح، فهو كذب وافتراء، فأنا وأنت وكل مؤمن يجب أن يعبد الله محبة له، وخوفًا من عذابه، وطمعًا في جنته، وهؤلاء صفوة الرجال يقول الله ﷻ عنهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

بل إن هناك أفضل من هؤلاء، وهم المرسلون عليهم الصلاة والسلام لما ذكر الله ﷻ بعضهم بأسمائهم وصفاتهم في سورة الأنبياء قال عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

إذًا: الإنسان يعبد ربه محبة له، وخوفًا من عذابه، وطمعًا في جنته.

واللهِ لولا جنة الله التي نرجوها وعذاب الله الذي نحذره ونخافه ما كنا بهذا المستوىٰ، لكننا نعبد الله ﷻ محبة ورغبة ورهبة، وهذا هو منهج المؤمنين، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** فحينئذ قاتلك الله، لو أن الخلق يقتدون بك لَمَا كان يكون لله سبحانه علىٰ وجه الأرض طائع، ولا من انتقامه خائف.

قلت: (محمد): وهذا ما يريده إبليس وهو أن يتعلق الناس بالرحمة فقط ولا يلتفتون لعقاب الله تعالىٰ.

- **وهنا من الجيد أن نرد علىٰ شبهة وهي:** أن بعض الناس الذين يتعلقون برحمة الله فقط يقول قائلهم: هل ربُّنا سيعذب الناس رغم رحمته سبحانه

وتعالىٰ؟

والمشكلة أنَّ هناك من يقول: إن الله لن يُعَذِّب من كفر به لأنَّه رحيم.

والجواب هنا من كلام فضيلة الشيخ الشعراوي ﷺ تعالىٰ، ولقد تكلَّم عن هذه القضية كثيرًا ﷺ تعالىٰ وهذا جانب من كلامه ﷺ.

✍ **يقول الشيخ الشعراوي** ﷺ تعالىٰ: يقول بعض الناس: وهل يُعقل أن الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلىٰ هذا المصير؟.

لقد اكتشفوا علاجًا لأمراض مستعصية وخففوا آلام الناس، وصنعوا الآلات المريحة والنافعة.

✍ **ونقول لأصحاب مثل هذا الرأي**: مهلًا، فهناك قضية يجب أن نتفق عليها وهي أن الذي يعمل عملًا؛ فهو يطلب الأجر ممن عمل له، فهل كان هؤلاء يعملون وفي بالهم الله أم في بالهم الإنسانية والمجد والشهرة، وما داموا قد نالوا هذا الأجر في الدنيا فليس لهم أن ينتظروا أجرًا في الآخرة. لذلك يقول الحق: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩](١).

وفي موضع آخر يقول ﷺ تعالىٰ: وقد يأتي واحد ويدعي لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول: هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل

(١) تفسير الشعراوي: (٢/ ٩٣٣).

هذه المخترعات التي أفادت الناس كالمواصلات وغيرها، أيصيرون إلىٰ عذاب؟.

ونقول: هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس في باله الله.

بل قام بتلك الأعمال وفي باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له، وينطبق عليه قول الرسول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**» [1]، ولم يغمطهم الله

(١) صحيح مسلم: (١٩٠٥). ولقد أثبت لفظ مسلم لأن الشيخ الشعراوي ﷺ ذكره بالمعنىٰ.

جزاء أعمالهم في الدنيا. فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم.

ووزَّع سبحانه فضل هذه المواهب علىٰ الناس الذين في بالهم الله؛ لذلك ترىٰ المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويُسجل أحاديث الإيمان علىٰ شرائط ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشعيرة، إذن فهؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم، والمؤمنون أيضًا مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله في عطاء العلم، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتىٰ لا يكونوا عالة علىٰ سواهم، فلا يستذلون. (١)

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** فعرفت أن ابن سمعون إنما أنكر عليه في موضعه.

- إن ابن هبيرة قال سابقًا: فنظرت فإذا إنكار ابن سمعون في موضعه.

ولقد استفدنا سابقًا من كلامه ﷺ تعالىٰ الآلية التي يجب أن يتلقىٰ بها طالب العلم العلوم وكلام العلماء.

والآن يعلمنا ابن هبيرة منهجية جديدة هي منهجية عدم التسرع: لأنه لمَّا تأنىٰ، ولم يتسرع وصل للمعرفة والنتيجة الصحيحة فقال: فعرفت أن ابن سمعون إنما أنكر عليه في موضعه.

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** ثم ذكر ابن سمعون بَقِيَّةَ المنام فقال: إني قلت له: يا جاهل، تَدرِي أَيَّ عذابٍ أَنْتَ مُعَذَّب؟ فقال لي: نعم، فقلت له: بأي عذاب أنت معذب؟

(١) تفسير الشعراوي: (٥/ ٢٦٥٥).

فقال: بعذاب المخالفة (١)، قال: فقلت له أيضًا: وهذه أيضًا مما تدل علىٰ زيادة جهلك. أَمَا مَا خَالَفَهُ غَيْرُك؟ أَمَا خَالَفَهُ آدم فتاب عليه واجتباه وهداه؟

✍ وهنا لنا وقفة مع هذا الفهم وهذه القضية:

إبليس لعنه الله يقول: إنَّ الله سيعذبه بعذاب المخالفة، وهنا مغالطة كبيرة، قام بتصحيحها ابن سمعون فقال لإبليس: وهذه أيضًا مما تدل علىٰ زيادة جهلك.

أَمَا مَا خَالَفَهُ غَيْرُك؟ أَمَا خَالَفَهُ آدم فتاب عليه واجتباه وهداه؟

---

(١) وهنا شبهة خطيرة وهي أن إبليس يقول: إن الله سيعذبه بعذاب المخالفة، وبالطبع هناك من خالف غير إبليس ولن يعذبه الله، فيريد إبليس بذلك أن يتهم الله بالظلم، لأنه خالف وعذَّبه الله، وهناك من خالف ولم يعذبه الله، ولكنَّ ابن سمعون رحمه الله كان كالجبل الأشم، وكان موفقًا في ردِّه حيث قال لإبليس: وهذه أيضًا مما تدل علىٰ زيادة جهلك. أَمَا مَا خَالَفَهُ غَيْرُك؟ أَمَا خَالَفَهُ آدم فتاب عليه واجتباه وهداه؟ وسبحان الله الذىٰ لا يظلم مثقال ذرة قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق: ٢٩]، وسبحانه هو الآمر بالعدل قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النحل: ٩٠].

قلت: (محمد): والفارق الخطير بين آدم، وإبليس هو الإصرار، والإقرار.

فآدم عصىٰ ولكنه أقرَّ بذنبه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٢- ٢٣]، فآدم اعترف وأقرَّ بذنبه، أما إبليس فإنه أصرَّ علىٰ معصيته كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٣٤].

والله حذَّرنا من الإصرار[1] علىٰ المعصية، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

---

(١) الإصرار: هو العزم بالقلب علىٰ الأمر وترك الإقلاع عنه، وقال سهل بن عبد الله: الجاهل ميّت، والنّاسي نائم، والعاصي سكران، والمصرّ هالك، والإصرار: هو التّسويف، والتّسويف: أن يقول: أتوب غدًا وهذا دعوىٰ النّفس، كيف يتوب غدا (وغدًا) لا يملكه؟، وقال غير سهل: الإصرار هو أن ينوي ألّا يتوب، فإذا نوىٰ التّوبة النّصوح خرج عن الإصرار، وقول سهل أحسن. وروي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**لا توبة مع إصرار**». انظر: تفسير القرطبي (٤/ ١٣٦).

ـ ولنتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥] **فإننا نستفيد الآتي:**

١ - أنَّ المؤمن المذنب سريع العودة والأوبة، وهو في صراع إذا غلبته نفسه ففعل فاحشةً، أو ظلم إنسانًا سريعًا ما يستغفر.

٢ ـ أن المؤمن المذنب لا يصر علىٰ المعصية، ولا يقيم عليها لأنه من باب الاعتقاد يعتقد أنها معصية، ومهلكة، ثم هو من باب العمل لا يقيم عليها، لأنها مهلكة، وتسبب له غضب الله تعالىٰ، وتستدعي بطش الله ﷻ.

- وبهذا يتضح لنا الفهم الدقيق لابن سمعون حيث قال لإبليس: أَمَا مَا خَالَفَهُ غَيْرُك؟ أَمَا خَالَفَهُ آدم فتاب عليه واجتباه وهداه؟

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** قال[1]: فقال لي - أي إبليس - فبأي عذاب أنا معذب؟، قال: فقلت له: أنت معذب بعذاب المقت.

* **وهنا لنا وقفة:** إبليس يسأل فبأي عذاب أنا معذب؟ فيجيب ابن سمعون: أنت معذب بعذاب المقت.

والمقت: هو البغض. والسؤال هنا، لماذا يعذب إبليس بعذاب المقت؟ والجواب: لأنه أعجب بنفسه. فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، فتكبر كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، والكبر أثر من آثار العجب، والعجب من دواعي المقت والشنآن.

(١) القائل هنا هو: ابن سمعون.

والمقت أشد أنواع الكراهية، وللتوضيح نضرب هذا المثال: إذا اجتمع مؤمن في مجلس مع رجل كذاب، وكلما تنفس نفسًا يكذب معه كذبة، فإن المؤمن يترفع عن هذا المجلس، وهذا هو المقت، فالمستقيم يكره المنحرف، والأمين يكره الخائن، والصادق يكره الكاذب، والنظيف يكره القذر.

وربنا ﷻ له الكمال المطلق، فإذا رأىٰ عبدًا يكذب، عبدًا منحط الأخلاق، عبدًا خائنًا، لئيمًا..... فالله ﷻ يمقته، والمقت أشد أنواع الكراهية، وقد يقول قائل: ولو أن الله مقته فماذا حدث؟

جاء الجواب: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]. مقت وخسارة.

- وكما أن العجب سبب من أسباب المقت، فإن الكفر كذلك من أسباب المقت، وقد وقع إبليس في الكفر كما وقع في العجب(١) قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]. فلما استكبر إبليس أعرض والإعراض عن الله وأمره كفر، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠]، فالكفر أن يعرض العبد عن الله، أن يلتفت إلىٰ الدنيا، أو إلىٰ غير الله، يدعىٰ إلىٰ الإيمان ويرفض: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ

(١) إن الإعجاب بالنفس هو الشرك الخفي ولذلك هو خطير ومهلك.

أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠]، وهذا عين ما فعله إبليس لعنه الله. (١)

✍ **ولنا هنا وقفة تربوية متعلقة بالكبر وهي:**

❍ **عدم الاعتراف بالفضل لأهله:**

الفضل يأتي بمعاني عديدة في القرآن ومن هذه المعاني الفضل بمعنىٰ التميز: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

وهذا المعنىٰ هو المراد الذي سنتحدث عنه، لأن الذي كان بين آدم وإبليس كان بسبب الفضل والتميز، فآدم تميز بما أعطاه الله له، وبما كرَّمه به، ولكنَّ إبليس لم يعترف بفضل آدم بل أنكر فضله، وعلىٰ هذا مشىٰ كل من سار علىٰ نهج إبليس في إنكارهم لفضل أهل الفضل، وكذلك إنكارهم للتميز الذي يهبه الله ويعطيه لمن اختار من خلقه، ولنسمع إلىٰ ما قاله قوم نوح كما حكىٰ القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ

(١) قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٣] فإذا لم يفعل الإنسان ما قاله بلسانه مَقَتَهُ الله أشد المقت، وحينما يمتهن الإنسان الفِكر، ويتعامل مع القيم لفظًا، ويتعامل مع الخُلُق الكريم عرضًا وبيانًا، وهو ليس كذلك فإنه وقع في شرِّ عمله، لذلك ربّنا ﷻ يَمْقُتُ هذا الإنسان أشدَّ المقت.

عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧]، فها هم ينكرون فضل أهل الفضل، ثم هم يتهمون نوحًا عليه السلام بأنه هو الذي يريد أن يتميز، أو يتفضل عليهم قال تعالىٰ: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

- وكذلك فعل فرعون مع موسىٰ عليه السلام: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥١- ٥٢]، فها هو يحقر من كليم الله الذي قال الله له: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، والذىٰ قال الله له: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه: ٣٩]، والذىٰ قال الله له: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ [طه: ٤١].

- وكما احتقر فرعونُ موسىٰ عليه السلام، احتقر قومَ موسىٰ جميعًا كما حكىٰ القرآن فقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٧].

- وهكذا فعل جميع العتاة والعصاة إلىٰ أن وصل الزمان إلىٰ زمان رسولنا ﷺ، وتكررت نفس الطريقة من كفار قريش، فحقَّروا منه صلوات الله عليه واتهموه بالجنون والسحر والكذب، ولما وقف

أبو سفيان أمام هرقل وسمع من هرقل ما سمع قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّىٰ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ. (١)

فانظر إلىٰ تحقير أبي سفيان للرسول ﷺ، فلم يذكره بنسبه القرشي إنما نسبه لرجل قيل هو رجل من خزاعة كان يعبد الشعرىٰ ولم يوافقه أحد من العرب في عبادتها فشبهوا النبي ﷺ به لمخالفتهم إياهم في دينهم كما خالفهم أبو كبشة. (٢)، وقيل إِنَّه جد جد أمه وَقيل أحد أجداده من الرضَاعَة وَقيل غير ذَلِك. (٣)

✍ **وكم من المواقف التي أنكر فيها أناس فضل أكارم من أهل الفضل ومن هؤلاء:**

١- الحجاج بن يوسف الثقفي واحتقاره لسعيد بن جبير.

٢- ابن أبىٰ دؤاد وتحقيره لعالم أنهىٰ الله علىٰ يديه فتنة خلق القرآن.

✍ **يقول الدارقطني**: أحمد بن أَبِي دؤاد قاضىٰ القضاة للمعتصم والواثق هو الذي كان يمتحن العلماء في أيامهما ويدعو إلىٰ القول

(١) صحيح البخاري: (٧).
(٢) انظر تعليق محمد فؤاد عبد الباقي علىٰ صحيح مسلم: (٣/ ١٣٩٦).
(٣) فتح الباري لابن حجر: (١/ ٢٤٩).

بخلق القرآن.

ولقد امتُحِنَ كثيرٌ من العلماء، ولم يُعْتَرَفْ بفضلهم، وكان آخرهم رجل قصته عجيبة ذكرها ابن قدامه في كتاب التوابين. (١)

✍ **قال**(٢): فصرخ صرخة فاستحال قِرْدًا.

وهنا بُهِت إبليس أمام حجة ابن سمعون(٣) ﷺ، لأن إبليس يجادل بالباطل وهذا ديدنه، وديدن تلاميذه الذين تعلموا منه واتخذوه وليًّا من دون الله قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [محمد: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ

(١) التوابين لابن قدامة: (ص: ١١٩: ١٢١).

(٢) القائل: ابن سمعون.

(٣) إن هذا الفهم والتوفيق يدلل علىٰ صلاح ابن سمعون، كما نحسبه والله حسيبه، بل كان ﷺ من الذين يصونون أنفسهم عن سماع الباطل، ولذلك أنكر الباطل وكان واضحًا أمامه، لأن الإنسان إذا اعتاد سماع الباطل كانت النتيجة خطيرة يقول ابن القيم: إن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه. فإنَّه إذا قَبِل الباطل أحبّه ورضيه فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذّبه إن قَدِر علىٰ ذلك وإلا حرّفه. انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٥٥.
- وهذا خطير جدًّا وهو في هذا الزمان كثير جدًّا في التعاليم والإذاعات والجرائد والمجلات وغيرها، ومن فهمه عرف سر تحريف كثير من الخلق للحق وسرّ رده والتكذيب به. انظر: علماء السلف وأهل الوقت (ص: ٣٣).

لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر: ٤ - ٥].

ولكن الباطل ضعيف ومهزوم أمام الحق قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

- ولقد حذرنا ربنا من الجدال عن الباطل وأهله فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٩].

- وحتىٰ ينجو الإنسان ويكون من أهل الحق لابد من اتباع الوحي قال تعالىٰ: ﴿ الٓمَّٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١ - ٣]، فأمر سبحانه باتباع ما أنزل علىٰ رسوله، ونهىٰ عن اتباع غيره، فما هو إلا اتباع المُنْزَل أو اتباع أولياءَ مِن دُونِه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم يتَّبع الوحي فإنما اتبع الباطلَ واتبعَ أولياءَ

من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به. (١)

✍ ثم قال ابن سمعون لإبليس: إنما سُمِّيتَ إبليس، لأن اشتقاق معناك كان مودعًا في نسمتك، أو نحو هذا الكلام.

يُقَالُ أَبْلَسَ إِذَا يَئِسَ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٧٧]، قَالُوا: وَمِنْ ذَلِكَ اشْتُقَّ اسْمُ إِبْلِيسَ، كَأَنَّهُ يَئِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَبْلَسَ الرَّجُلُ سَكَتَ، وَمِنْهُ أَبْلَسَتِ النَّاقَةُ، وَهِيَ مِبْلَاسٌ، إِذَا لَمْ تَرْغُ مِنْ شِدَّةِ الضَّبَعَةِ. (٢)

✍ قال (٣): فقال لي (٤): شيخ، فماذا يكون تدبيري؟ قال: فقلت له: يا هذا (٥) تَنَزَّلْكَ مَعَ أَمْرِه، وَتَسَلُّمُكَ إلىٰ حُكْمِه.

✍ ولنا هنا وقفتان مع الجواب الحكيم من ابن سمعون لإبليس.

✍ الوقفة الأولى: مع قوله ﷻ تعالىٰ: **تَنَزُّلُكَ مَعَ أَمْرِه.**

والتنزل مع الأمر هو الخضوع لأمر الله تعالىٰ، والخضوع هو العبادة، والسجود هو منتهىٰ الخضوع لله.

---

(١) الرسالة التبوكية: (١/ ٥١).
(٢) مقاييس اللغة (١/ ٣٠٠).
(٣) القائل ابن سمعون.
(٤) القائل إبليس.
(٥) وانظر إلىٰ هذا الشيخ الأسد العارف بالله، وهو يكلم إبليس بهذه الطريقة ويقول له: يا هذا. استحقارًا له، وتقليلًا لشأنه، ونجد الآن من يعبد إبليس نعوذ بالله من الخذلان.

والله ﷻ أمرنا بالخضوع له أمام الناس علنًا، أن أسجد وأضع رأسي مكان قدمي، وأعلن خضوع ذاتي لله أمام البشر كلهم، أعلن عبوديتي لله، وذلك حتىٰ لا أستكبر. والله سبحانه يريد الناس جميعًا عبيدًا له وحده لا شريك له.

لذا يستوي في العبودية وفي إعلان الخضوع لله الغني والفقير، والكبير والصغير، والملك والعبد، والأبيض والأسود، والذكر والأنثىٰ، والقوي والضعيف.

وقد أرسل الله رسوله محمدًا - ﷺ - ليكون مثلًا أعلىٰ للبشرية كلها في كل شيء، في العبادة لله عن حب وإيمان، وذل وخضوع.

وخضوعنا للرب الملك القادر والقاهر شرف لنا، بل هو قمة الشرف لنا، فالله بعظمته وجلاله وجماله وكماله يجعل الخضوع له شرفًا لنا، فنحن لا نخضع لمساوٍ لنا، ولا لمن فوقنا درجة، ولا لمن فوقنا درجات، ولا لأي مخلوق في الكون مهما كان.

بل نخضع لخالق الكون كله، ومهما بلغت القوىٰ التي فوقنا، فإن لكل قوة في الكون قدرة لا تتجاوزها.

ولكن الله سبحانه وتعالىٰ فوق كل قدرة، وفوق كل قوة، وفوق كل شيء، والأصل في الحياة أن يخضع الأدنىٰ للأعلىٰ، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ حررنا من هذه العبودية، بأن جعلنا لا نخضع لسواه، فله الحمد والشكر علىٰ هذه النعمة.(١)

(١) موسوعة فقه القلوب (٢/ ١٧٥١-١٧٥٣).

✍ **الوقفة الثانية:** مع قوله ﷺ تعالىٰ: **وَتَسَلُّمُكَ إلىٰ حُكْمِه.**

إن طلب الغفران إنما يكون بعد الاستسلام لله، وإعلان السمع والطاعة له، واليقين بأن المصير إليه سبحانه في الدنيا والآخرة، وإبليس لم يستسلم لحكم الله، بل أعلن العصيان والتمرد.

✍ **يقول ابن القيم:** وَأَمَّا الِاسْتِسْلَامُ لِلْحُكْمِ فَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْحُكْمَ الدِّينِيَّ الشَّرْعِيَّ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ عَدَمَ مُعَارَضَتِهِ بِرَأْيٍ أَوْ شَهْوَةٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الِاسْتِسْلَامَ لِلْحُكْمِ الْقَدَرِيِّ، وَهُوَ عَدَمُ تَلَقِّيهِ بِالتَّسَخُّطِ وَالْكَرَاهَةِ وَالِاعْتِرَاضِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْخُشُوعَ هُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلْحُكْمَيْنِ، وَهُوَ الِانْقِيَادُ بِالْمَسْكَنَةِ وَالذُّلِّ لِأَمْرِ اللهِ وَقَضَائِهِ. (١)

○ معنى الاستسلام لله تعالى:

الإسلام يحمل معنىٰ الخضوع والانقياد والاستسلام لأوامر الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وهذا الضلال في ترك الاستسلام والانقياد لأوامر الله ﷻ، وما كان كفر إبليس إلا بترك هذا الاستسلام، فقد أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، ومن

(١) مدارج السالكين: (١/ ٥١٨).

تكبر عن طاعة الله لا تنفعه طاعاته السابقة كما لم تنفع إبليس عبادته قبل ذلك؛ لأنه مَنْ رد أمر الله ﷻ في أمر واحد فقد نفض يديه من معنىٰ العبودية، ولا يبقىٰ للإسلام معنىٰ، ولا يبقىٰ للدين معنىٰ مع انتقاض معنىٰ العبودية لله سبحانه وتعالىٰ، ولذا كانت دعوة أهل الإسلام دائمًا إلىٰ الانقياد لله سبحانه وتعالىٰ، وتوجيه القلوب إلىٰ وجهة واحدة إلىٰ مرضاة الله ﷻ.

إن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان، إنما هو الاستسلام لله بالطاعة والعبودية، وبذل كل شيء، وترك كل شيء من أجل ذلك.

○ استسلام الخليل عليه السلام لله:

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣١]، ولنتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وهنا نسأل هل كان إبراهيم مشركًا أو نصرانيًا أو يهوديًا؟ والجواب من الله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠]. إذن ما معنىٰ: ﴿ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ [البقرة: ١٣١]، المعنىٰ المراد هو ما نحن بصدد الحديث عنه وهو الاستسلام والانقياد لله ظاهرًا وباطنًا، ولقد اختبر الله سبحانه وتعالىٰ الخليل إبراهيم في مواقف عديدة أذكرها إجمالًا دون تفصيل:

أ- ابتلاه لما أُلقي في النار.

ب- ابتلاه بترك وطنه وهجرته.

ج- ابتلاه بترك زوجته وولده في مكان غير ذي زرع.

د- وابتُلي بذبح ابنه إسماعيل، فما كاد يأنس به حتىٰ ابتلي بذبحه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إنها إشارة وليست وحيًا صريحًا، ولا أمرًا مباشرًا، ولكنها إشارة من ربه، وهذا يكفي، فلبىٰ دون أن يعترض أو يسأل.

ولم يلبِّ في انزعاج ولا جزع، بل استجاب مطمئنًا راضيًا واثقًا أنه يؤدي واجبه، والذي لا يهوله الأمر فيؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي.

إن الأمر شاق علىٰ النفس جدًا، فالله لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلىٰ المعركة.. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته.. إنما يطلب إليه أن يتولىٰ ذبح ابنه بيده.

وهو مع هذا يتلقىٰ الأمر هذا التلقي، ويعرض علىٰ ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يرىٰ فيه رأيه.

إنه لا يأخذ ابنه علىٰ غرة لينفذ إشارة ربه وينتهي، إنما يعرض الأمر عليه، كالذي يعرف المألوف من الأمر، فالأمر في حسه هكذا، ربه يريد فليكن ما يريد، وابنه ينبغي أن يعرف، وأن يأخذ الأمر طاعة واستسلامًا، لا قهرًا ولا اضطرارًا؛ لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر، ويتذوق حلاوة

التسليم لأمر ربه.

إن إبراهيم - عليه السلام - يحب لابنه إسماعيل - عليه السلام - أن يتذوق حلاوة الإيمان، ولذة التطوع التي ذاقها.

فماذا كان من أمر الغلام الذي يعرض عليه الذبح تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢].

لقد تلقىٰ الأمر لا في طاعة فحسب، ولكن في رضىٰ كذلك ويقين.

ثم هو الأدب مع الله بالاستعانة به علىٰ ضعفه، ونسبة الفضل إليه في إعانته علىٰ التضحية، ومساعدته علىٰ الطاعة.

فلم يأخذها بطولة، ولم يأخذها شجاعة، إنما أرجع الفضل كله لله، إنْ هو أعانه علىٰ ما يُطلب إليه، وأصبره علىٰ ما يراد به.

ثم يزيد البلاء بدفعه إلىٰ التنفيذ: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: ١٠٣].

ألا ما أعظم هذا الابتلاء، لقد كب إبراهيم ابنه علىٰ جبينه ليذبحه، والغلام استسلم للذبح فلا يتحرك اقتناعًا، وقد وصل الأمر إلىٰ أن يكون عيانًا.

لقد أسلما، فهذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة وطاعة، وطمأنينة ورضىٰ، وتسليم وتنفيذ.

وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي تنبي عن الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة ولا الاندفاع، إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل، القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. بل هنا الرضا الهادي المتذوق لحلاوة الطاعة.

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أسلما، ولم يبق إلا أن يذبح إبراهيم ابنه إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه.

وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله، بعد ما وضع الأب وابنه في هذا الميزان من روحهما وعز مهما كل ما أراده الله منهما، فالابتلاء قد تم، ولم يبق إلا الألم البدني، وإلا الدم المسفوح، والجسد الذبيح.

والله ﷻ لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء.

فلما علم الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما، فاعتبرهما قد أديا، فأثمر الصدق والنجاة: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥].

فالله ﷻ لا يريد إلا الإسلام والاستسلام، بحيث لا يبقىٰ في النفس ما تكنه عن الله، أو تعزه عن أمره، أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة.

○ استسلام الرسول ﷺ لله:

إن حياة النبي ﷺ كلها استسلام لأمر الله تعالىٰ، وكيف لا وهو القائل في دعاء استفتاح صلاة الليل: «.....**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ،**

وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ». (١)

ولو أردت ذكر أمثلة سأذكر سيرته كاملة ﷺ، ولكن يكفيني موقف واحد.

- قضىٰ الله ﷻ أن يلتقي المسلمون، مع المشركين في غزوة بدر علىٰ غير ميعاد، فلم يجد رسول الله ﷺ إلا أن يطرح نفسه علىٰ عتبة عبودية الله رب العالمين؛ لأن الحل الوحيد أن ينصرهم وأن يأخذ بأيديهم؛ ولذلك نظر إلىٰ أصحابه الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم فداءً لله تبارك وتعالىٰ، ونصرًا لدين الله ﷻ، لم يلتفت واحدٌ منهم إلىٰ داره، ولن يتأسف أنه فقد أمواله التي جمعها طيلة حياته، إذا كان الله ﷻ هو المقصود، ومن أجله عملوا، وفي سبيله خرجوا، لم يلتفت ولم يندم واحد من هؤلاء الذين تحقق فيهم الإيمان، والصفات التي بدأ الله ﷻ بها سورة الأنفال.

خرج المسلمون العزل الذين لم يكن معهم غير فارسين، ونظر إليهم رسول الله ﷺ فبالغ في الدعاء، وفي رفع يديه؛ إشارةٌ إلىٰ الاستسلام الكامل والانخلاع من الحول والقوة: اللهم إنهم جياع فأطعمهم، اللهم إنهم عراةٌ فاكسهم، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض.

قال: ثم قلت له: يا جاهل، يا عديم العلم، لَأَجْهُلُ مِنْكَ مَنْ ظن أنك شَمَمْتَ ريح العلم، أَلَيْسَ بلغ من جهلك أنك لما قال لك ربك اسجد لآدم

(١) صحيح البخاري: (٧٣٨٥).

أَبَيْت؟ ثم عَلَّلْتَ إِبَاءَكَ أَنْ قلت: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

✍ وهنا لنا وقفتان:

* **الوقفة الأولىٰ**: مع قوله: أَلَيْسَ بلغ من جهلك أنك لما قال لك ربك اسجد لآدم أَبَيْت؟

أيها القارئ الكريم:

إن السجود عبادةٌ لا يُرَىٰ المؤمنُ أذلَّ وأخضعَ للهِ إلا فيها، وبها يضعُ جبهتَه علىٰ الأرض وكفيهُ ورُكْبَتَيهُ وقَدَمَيه إيذانًا للنفسِ والشيطان بأنَّ الخضوعَ والتذللَ للهِ وحده، فتراهُ هادئَ الأركان حاضرَ الجَنَان، يتمتمُ بلسانِه الرطبِ بذكرِ الله: سبحان ربي الأعلىٰ، علوٌّ قهرٍ وقدرٍ لله، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وعلوٌّ مكانٍ للذاتِ الإلهيَّة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

سجدَ المؤمنُ لله يومَ أنْ سجدَ غيرهُ للشمسِ والقمرِ والبقر وآلهةٍ منَ الأخشابِ والأحجارِ والأشجار، فحقيقٌ أنْ نقفَ معَ السجودِ وقفةَ محاسبةٍ لأنْفسِنَا حتىٰ تصبحَ عبادةَ روحٍ وقلب، لا عبادةَ عادة، حتىٰ لا يكونَ السجودُ جسدًا بلا روح وليلا بلا قمر وفجرًا بلا نور وعينين بلا حور.

✍ **الوقفة الثانية مع قوله**: ثم عَلَّلْتَ إِبَاءَكَ أَنْ قلت: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

فإبليس لعنه الله يقول: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهنا العجب

العجاب لأن إبليس يعترف بأن الله هو الذي خلقه، ومع ذلك يعترض علىٰ حكم الله، مع أنَّ الله قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فاللّه هو الخالق المهيمن المصرف المدبر، وهو الذي يستحق أن يكون ربا، إنه هو صاحب الخلق والأمر.. وكما أنه لا خالق معه. فكذلك لا آمر معه..

فكيف يعترض إبليس علىٰ أمره وفي نفس الوقت، يعترف بأنه هو الخالق.

✍ **ولذلك قال ابن سمعون**: يا جاهل، يا عديم العلم، لَأَجْهُلُ مِنْكَ مَنْ ظن أنك شَمَمْتَ ريح العلم، أَلَيْسَ بلغ من جهلك أنك لما قال لك ربك اسجد لآدم أَبَيْت؟ ثم عَلَّلْتَ إِبَاءَكَ أَنْ قلت: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

والآن قد وضح لنا لماذا قال له ابن سمعون رحمه الله تعالىٰ ما قال. (١)

✍ **ثم قال ابن سمعون**: وَيْلَك. بَلَغَ من أمرك أنك تُسَوِّي أنت لربك تدبيره وتُتِمَّ لَهُ أموره.

✍ **قلت أنا - أي ابن هبيرة - عند هذا الكلام**: يا جاهل، أنت بزعمك خَيْرٌ من آدم جِنسًا -في ضمن اعتراضك هذا- ومِمَّنْ هو خيرٌ تدبيرًا.

✍ **قال ابن سمعون**: فاستخذئ واستسلم.

- ولنا هنا وقفة مع كلام ابن هبيرة: يقول ابن هبيرة: يا جاهل، أنت

(١) وقد سبق لنا بيان قضية الاستسلام لأوامر الله عند قول ابن سمعون لإبليس: تَنَزُّلُكَ مَعَ أَمْرِه وَتَسَلُّمُكَ إلىٰ حُكْمِه.

بزعمك خَيْرٌ من آدم جِنسًا في ضمن اعتراضك هذا ومِمَّنْ هو خيرٌ تدبيرًا.

فهل حقًّا إبليس أفضل من آدم؟

✍ **يقول الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ:**

تَنْبِيهٌ:

مِثْلُ قِيَاسِ إِبْلِيسَ نَفْسَهُ عَلَىٰ عُنْصُرِهِ، الَّذِي هُوَ النَّارُ وَقِيَاسِهِ آدَمَ عَلَىٰ عُنْصُرِهِ، الَّذِي هُوَ الطِّينُ وَاسْتِنْتَاجُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤْمَرَ بِالسُّجُودِ لِمَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، مَعَ وُجُودِ النَّصِّ الصَّرِيحِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] يُسَمَّىٰ فِي اصْطِلَاحِ الْأُصُولِيِّينَ فَاسِدُ الِاعْتِبَارِ.

وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِ صَاحِبِ «مَرَاقِي السُّعُودِ»:

وَالْخُلْفُ لِلنَّصِّ أَوْ إِجْمَاعٍ دَعَا ... فَسَادَ الِاعْتِبَارِ كُلُّ مَنْ وَعَىٰ

فَكُلُّ مَنْ رَدَّ نُصُوصَ الْوَحْيِ بِالْأَقْيِسَةِ فَسَلَفُهُ فِي ذَلِكَ إِبْلِيسُ، وَقِيَاسُ إِبْلِيسَ هَذَا لَعَنَهُ اللهُ بَاطِلٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ فَاسِدُ الِاعْتِبَارِ؛ لِمُخَالَفَةِ النَّصِّ الصَّرِيحِ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا.

الثَّانِي: أَنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، بَلِ الطِّينُ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ؛ لِأَنَّ طَبِيعَتَهَا الْخِفَّةُ وَالطَّيْشُ وَالْإِفْسَادُ وَالتَّفْرِيقُ، وَطَبِيعَتَهُ الرَّزَانَةُ وَالْإِصْلَاحُ فَتُودِعُهُ الْحَبَّةَ فَيُعْطِيكَهَا سُنْبُلَةً، وَالنَّوَاةَ فَيُعْطِيكَهَا نَخْلَةً.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ الطِّينِ فَانْظُرْ إِلَىٰ الرِّيَاضِ النَّاضِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الثِّمَارِ اللَّذِيذَةِ، وَالْأَزْهَارِ الْجَمِيلَةِ، وَالرَّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ تَعْلَمُ أَنَّ الطِّينَ خَيْرٌ مِنَ

النَّارِ.

الثَّالِثُ: أَنَّا لَوْ سَلَّمْنَا تَسْلِيمًا جَدَلِيًّا أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ؛ لِأَنَّ شَرَفَ الْأَصْلِ لَا يَقْتَضِي شَرَفَ الْفَرْعِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْأَصْلُ رَفِيعَ الْفَرْعِ وَضِيعًا، **كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ**:

إِذَا افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ ... قُلْنَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ الْآخَرُ:

وَمَا يَنْفَعُ الْأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ ... إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ (١)

- وللإمام ابن القيم كلام أنفس من كل معدن نفيس فلنتأمل كلامه رحمه الله تعالىٰ.

✍ **قال ابن القيم**:

فصل مناظرة إبليس في آدم

في ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له، وبيان فسادها وقد كرر الله تعالىٰ ذكرها في كتابه، وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبرًا منه وكفرًا ومجرد إباء، وإنما ذكر الشبهة تعنتًا، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه وأما شبهته الداحضة وهي: أن أصله وعنصره النار وأصل آدم وعنصره التراب ورتب علي ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب علىٰ هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه فهي باطلة من

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٣٣/ ٣٤).

وجوه عديدة:

منها: أن دعواه كونه خيرًا من آدم دعوىٰ كاذبة باطلة، واستدلاله عليها بكونه مخلوقًا من نار وآدم من طين استدلال باطل، وليست النار خيرًا من الطين والتراب بل التراب خير من النار وأفضل عنصرًا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم والآت معايشهم ومساكنهم والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة، ولا عن ما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقًا، وقد يستغنىٰ عنها الإنسان الأيام والشهور فلا تدعوه إليها الضرورة فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلىٰ انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان.

الخامس: أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفا ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلىٰ محل تقوم به فيكون حاملًا لها، والتراب لا يفتقر إلىٰ حامل فالتراب أكمل منها.

السابع: أن النار مفتقرة إلىٰ التراب وليس بالتراب فقر إليها فإن المحمل

الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونا من التراب، أو فيه فهي الفقيرة إلىٰ التراب وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوىٰ فيميل معه كيفما مال، ولهذا غلب الهوىٰ علىٰ المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوىٰ أينما ذهب وقهر هواه وأسره ورجع إلىٰ ربه، فاجتباه واصطفاه فكان الهوىٰ الذي مع المادة الآدمية عارضا سريع الزوال فزال، وكان الثبات والرزانة أصليًّا له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلىٰ أصله وعنصر آدم إلي أصله الطيب الشريف واللعين إلىٰ أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع فالشر فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر.

العاشر: أن الله تعالىٰ أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات ودعا عباده إلىٰ التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعًا أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين تذكرة بنار الآخرة ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون بالأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزلة فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.

الحادي عشر: أن الله تعالىٰ وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصًا وأخبر أنه بارك فيها عمومًا فقال: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت: ٩-١٠] فهذه بركة عامة وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ [سبأ: ١٨]، وقوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلًا بل المشهور أنها مذهبة للبركة مَاحِقَةٌ لها؛ فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه إلىٰ مزيل البركة وَمَاحِقُهَا.

الثاني عشر: أن الله تعالىٰ جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغدو والآصال عمومًا وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا فيه وهدىٰ للعالمين خصوصًا ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفضلًا علىٰ النار.

الثالث عشر: أن الله تعالىٰ أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يودع في النار شيئًا منه فأي روضة وجدث في النار أو جنة أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض فالنار إنما

محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها فهي تابعة لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأىٰ صورة الطين ترابًا ممتزجًا بماء فاحتقره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذي جعل الله تعالىٰ منه كل شيء حي والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة فلو تجاوز نظره صورة الطين إلىٰ مادته ونهايته لرأىٰ أنه خير من النار وأفضل، وإذا استقريت الوجوه التي تدلك علىٰ أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جدًا وإنما أشرنا إليها إشارة ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرًا من المخلوق من الطين فإن القادر علىٰ كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص المادة فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلىٰ كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلىٰ كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خَلقًا وخُلقًا، وقد خلق الله تعالىٰ الملائكة من نور وآدم من تراب ومنه ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب فهذا وأمثاله مما يدلك علىٰ ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد فقياسه باطل نصًّا وعقلًا، وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه فنعوذ بالله من

الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشر منه ولأن يلقي الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به أسلم له من أن يلقي الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله تعالىٰ إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة أقوىٰ من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم فالعالم يتدبر سر تكرير الله تعالىٰ لهذه القصة مرة بعد مرة وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر.

فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالىٰ ظنه عليهم وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء فيجرد عبادة الله عن عبادة ما سواه ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم علىٰ الله والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالىٰ. (١)

ثم قال لي بعد ذلك: يا شيخ. اتركني وأهل البدع. ثم انقطع مَنَامُ ابن سمعون.

(١) بدائع الفوائد: (٤/ ١٣٩٤/ ١٤٣).

فرأيت أنا[١] في المنام شرح الحال، أنه قال له: (دعني وأهل البدع)، أن معناه: أنه أراد أن أهل البدع يأتون ما يأتون من مساخط الله – سبحانه– في مقام لا يتوبون منه، ولا يعتذرون عنه. [٢]

فأراد الفاسق – يعني إبليس – من ابن سمعون أن لا ينبه علىٰ ما عليه أهل البدع من الضلالة، ظنا منه أن ابن سمعون قد بلغ بغضه لأهل البدع وشنآنه إياهم إلىٰ الحد الذي لا يستنقذهم بعمله من يده، فيتركهم معه.

إن إبليس أراد من ابن سمعون أن لا ينبه علىٰ ما عليه أهل البدع من الضلالة.

وكذا يريد إبليس من أهل العلم عدم التنبيه علىٰ ضلال أهل الضلال، ولكن لا بد من التنبيه علىٰ ما عليه أهل البدع.

✍ **فأقول مستعينًا بالله:**

۞ التَّحْذِيرُ مِنِ الْبِدَعِ وَبَيَانُ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْجَادَّةِ:

✍ **يقول صاحب كتاب الاعتصام:** وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْإِنْكَارِ مَا وَقَعَ مَعَ مَا هَدَىٰ اللهُ إِلَيْهِ وَلَهُ الْحَمْدُ، لَمْ أَزَلْ أَتَّبِعُ الْبِدَعَ الَّتِي نَبَّهَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَحَذَّرَ مِنْهَا، وَبَيَّنَ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْجَادَّةِ، وَأَشَارَ الْعُلَمَاءُ إِلَىٰ تَمْيِيزِهَا وَالتَّعْرِيفِ بِجُمْلَةٍ مِنْهَا، لَعَلِّي أَجْتَنِبُهَا فِيمَا اسْتَطَعْتُ، وَأَبْحَثُ عَنِ السُّنَنِ الَّتِي

(١) الذي رأىٰ هو ابن هبيرة، وانظر أيها القارئ الكريم وتأمل: شفافية النفس، والوصال بين القلوب، وبين خالقها.

(٢) وأهل البدع لا يعتذرون لأنهم يظنون أنهم علىٰ الحق، بل ويظنون أنهم يتقربون إلىٰ الله بما يفعلون من بدع، نعوذ بالله من الخذلان.

كَادَتْ تُطْفِئُ نُورَهَا تِلْكَ الْمُحْدَثَاتُ؛ لَعَلِّي أَجْلُو بِالْعَمَلِ سَنَاهَا، وَأُعَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَنْ أَحْيَاهَا، إِذْ مَا مِنْ بِدْعَةٍ تُحْدَثُ إِلَّا وَيَمُوتُ مِنَ السُّنَنِ مَا هُوَ فِي مُقَابَلَتِهَا، حَسْبَمَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ.

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: مَا يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ مِنْ عَامٍ، إِلَّا أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً، وَأَمَاتُوا فِيهِ سُنَّةً، حَتَّىٰ تَحْيَا الْبِدْعَةُ، وَتَمُوتَ السُّنَنُ.

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: لَا يُحْدِثُ رَجُلٌ بِدْعَةً إِلَّا تَرَكَ مِنَ السُّنَّةِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا.

وَعَنْ لُقْمَانَ بْنِ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا أَحْدَثَتْ أُمَّةٌ فِي دِينِهَا بِدْعَةً إِلَّا رُفِعَ بِهَا عَنْهُمْ سُنَّةٌ. وَعَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ قَالَ: مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ اللهُ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا، ثُمَّ لَمْ يُعِدْهَا إِلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ، وَهُوَ مُشَاهَدٌ مَعْلُومٌ حَسْبَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ. (١)

۞ ذَمِّ الْبِدَعِ وَسُوءِ مُنْقَلَبِ أَصْحَابِهَا:

○ الأَدِلَّةُ مِنَ النَّظَرِ عَلَى ذَمِّ الْبِدَعِ:

لَا خَفَاءَ أَنَّ الْبِدَعَ مِنْ حَيْثُ تَصَوُّرِهَا يَعْلَمُ الْعَاقِلُ ذَمَّهَا، لِأَنَّ اتِّبَاعَهَا خُرُوجٌ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَرَمْيٌ فِي عَمَايَةٍ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ، وَالنَّقْلِ الشَّرْعِيِّ الْعَامِّ.

---

(١) الاعتصام للشاطبي: (١/ ٣٩/ ٤٠).

✍ أَمَّا النَّظَرُ فَمِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالتَّجَارِبِ وَالْخِبْرَةِ السَّارِيَةِ فِي الْعَالَمِ مِنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا إِلَىٰ الْيَوْمِ أَنَّ الْعُقُولَ غَيْرُ مُسْتَقِلَّةٍ بِمَصَالِحِهَا، اسْتِجْلَابًا لَهَا، أَوْ مَفَاسِدِهَا، اسْتِدْفَاعًا لَهَا. لِأَنَّهَا إِمَّا دُنْيَوِيَّةٌ أَوْ أُخْرَوِيَّةٌ.

فَأَمَّا الدُّنْيَوِيَّةُ؛ فَلَا يُسْتَقَلُّ بِاسْتِدْرَاكِهَا عَلَىٰ التَّفْصِيلِ أَلْبَتَّةَ، لَا فِي ابْتِدَاءِ وَضْعِهَا أَوَّلًا، وَلَا فِي اسْتِدْرَاكِ مَا عَسَىٰ أَنْ يَعْرِضَ فِي طَرِيقِهَا، إِمَّا فِي السَّوَابِقِ، وَإِمَّا فِي اللَّوَاحِقِ، لِأَنَّ وَضْعَهَا أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا أُنْزِلَ إِلَىٰ الْأَرْضِ عَلِمَ كَيْفَ يَسْتَجْلِبُ مَصَالِحَ دُنْيَاهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَعْلُومِهِ أَوَّلًا، إِلَّا عَلَىٰ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ تَحْتَ مُقْتَضَىٰ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ تَعْلِيمًا غَيْرَ عَقْلِيٍّ، ثُمَّ تَوَارَثَتْهُ ذُرِّيَّتُهُ كَذَلِكَ فِي الْجُمْلَةِ، لَكِنْ فَرَّعَتِ الْعُقُولُ مِنْ أُصُولِهَا تَفْرِيعًا تَتَوَهَّمُ اسْتِقْلَالَهَا بِهِ، وَدَخَلَ فِي الْأُصُولِ الدَّوَاخِلُ حَسْبَمَا أَظْهَرَتْ ذَلِكَ أَزْمِنَةُ الْفَتَرَاتِ، إِذْ لَمْ تَجْرِ مَصَالِحُ الْفَتَرَاتِ عَلَىٰ اسْتِقَامَةٍ؛ لِوُجُودِ الْفِتَنِ وَالْهَرْجِ، وَظُهُورِ أَوْجُهِ الْفَسَادِ.

فَلَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِبَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، لَمْ تَسْتَقِمْ لَهُمْ حَيَاةٌ، وَلَا جَرَتْ أَحْوَالُهُمْ عَلَىٰ كَمَالِ مَصَالِحِهِمْ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

وَأَمَّا الْمَصَالِحُ الْأُخْرَوِيَّةُ، فَأَبْعَدُ عَنْ مَصَالِحِ الْمَعْقُولِ مِنْ جِهَةِ وَضْعِ أَسْبَابِهَا، وَهِيَ الْعِبَادَاتُ مَثَلًا؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَشْعُرُ بِهَا عَلَىٰ الْجُمْلَةِ، فَضْلًا عَنِ الْعِلْمِ بِهَا عَلَىٰ التَّفْصِيلِ.

وَمِنْ جِهَةِ تَصَوُّرِ الدَّارِ الْأُخْرَىٰ وَكَوْنِهَا آتِيَةً، فَلَا بُدَّ وَأَنَّهَا دَارُ جَزَاءٍ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُدْرِكُ الْعَقْلُ مِنْ ذَلِكَ مُجَرَّدُ الْإِمْكَانِ أَنْ يَشْعُرَ بِهَا.

وَلَا يَغْتَرَّنَّ ذُو الْحِجَىٰ بِأَحْوَالِ الْفَلَاسِفَةِ الْمُدَّعِينَ لِإِدْرَاكِ الْأَحْوَالِ الْأُخْرَوِيَّةِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ قَبْلَ النَّظَرِ فِي الشَّرْعِ، فَإِنَّ دَعْوَاهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ فِي الْمَسْأَلَةِ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّ الشَّرَائِعَ لَمْ تَزَلْ وَارِدَةً عَلَىٰ بَنِي آدَمَ مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ، وَالْأَنْبِيَاءُ أَيْضًا لَمْ يَزَالُوا مَوْجُودِينَ فِي الْعَالَمِ وَهُمْ أَكْثَرُ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إِلَىٰ أَنِ انْتَهَتْ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ.

غَيْرَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ كَانَتْ إِذَا أَخَذَتْ فِي الدُّرُوسِ؛ بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَائِهِ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا خُلِقُوا لِأَجْلِهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ لِلَّهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَبْقَىٰ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْمَفْرُوضَةِ، مَا بَيْنَ زَمَانِ أَخْذِهَا فِي الِانْدِرَاسِ وَبَيْنَ إِنْزَالِ الشَّرِيعَةِ بَعْدَهَا بَعْضُ الْأُصُولِ الْمَعْلُومَةِ.

فَأَتَىٰ الْفَلَاسِفَةُ إِلَىٰ تِلْكَ الْأُصُولِ، فَتَلَقَّفُوهَا أَوْ تَلَقَّفُوا مِنْهَا، فَأَرَادُوا أَنْ يُخَرِّجُوهُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ عُقُولِهِمْ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ عَقْلِيًّا لَا شَرْعِيًّا.

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، فَالْعَقْلُ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ أَلْبَتَّةَ، وَلَا يَنْبَنِي عَلَىٰ غَيْرِ أَصْلٍ، وَإِنَّمَا يَنْبَنِي عَلَىٰ أَصْلٍ مُتَقَدِّمٍ مُسَلَّمٍ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَلَا يُمْكِنُ فِي أَحْوَالِ الْآخِرَةِ قِبَلَهُمْ أَصْلٌ مُسَلَّمٌ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ بَسْطٌ سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَعَلَىٰ الْجُمْلَةِ: الْعُقُولُ لَا تَسْتَقِلُّ بِإِدْرَاكِ مَصَالِحِهَا دُونَ الْوَحْيِ، فَالِابْتِدَاعُ مُضَادٌّ لِهَذَا الْأَصْلِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ بِالْفَرْضِ، فَلَا يَبْقَىٰ إِلَّا مَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْعَقْلِ.

فَالْمُبْتَدِعُ لَيْسَ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ بِدْعَتِهِ أَنْ يَنَالَ بِسَبَبِ الْعَمَلِ بِهَا مَا رَامَ تَحْصِيلَهُ مِنْ جِهَتِهَا، فَصَارَتْ كَالْعَبَثِ.

هَذَا إِنْ قُلْنَا: إِنَّ الشَّرَائِعَ جَاءَتْ لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ.

وَأَمَّا عَلَىٰ الْقَوْلِ الْآخَرِ؛ فَأَحْرَىٰ أَنْ لَا يَكُونَ صَاحِبُ الْبِدْعَةِ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا إِذْ ذَاكَ مُجَرَّدُ تَعَبُّدٍ وَإِلْزَامٍ مِنْ جِهَةِ الْآمِرِ لِلْمَأْمُورِ، وَالْعَقْلُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذِهِ الْخُطَّةِ حَسْبَمَا تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْأُصُولِ.

وَنَاهِيكَ مِنْ نِحْلَةٍ يَنْتَحِلُهَا صَاحِبُهَا فِي أَرْفَعِ مُطَالَبَةٍ لَا ثِقَةَ بِهَا، وَيُلْقِي مِنْ يَدِهِ مَا هُوَ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ كَامِلَةً لَا تَحْتَمِلُ الزِّيَادَةَ وَلَا النُّقْصَانَ: لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ فِيهَا: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

وَفِي حَدِيثِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْأَعْيُنُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟

قَالَ: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، وَلَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي**» الْحَدِيثَ.

وَثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ أَتَىٰ بِبَيَانِ جَمِيعِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَهَذَا لَا مُخَالِفَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَالْمُبْتَدِعُ إِنَّمَا مَحْصُولُ قَوْلِهِ بِلِسَانِ حَالِهِ أَوْ مَقَالِهِ: إِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمْ تَتِمَّ، وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهَا أَشْيَاءُ يَجِبُ أَوْ يُسْتَحَبُّ اسْتِدْرَاكُهَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُعْتَقِدًا لِكَمَالِهَا وَتَمَامِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ لَمْ يَبْتَدِعْ، وَلَا اسْتَدْرَكَ عَلَيْهَا، وَقَائِلُ هَذَا ضَالٌّ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

قَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: مَنِ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بِدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَانَ الرِّسَالَةَ، لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة: ٣]، فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا، فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ الْمُبْتَدِعَ مُعَانِدٌ لِلشَّرْعِ، وَمَشَاقٌّ لَهُ؛ لِأَنَّ الشَّارِعَ قَدْ عَيَّنَ لِمَطَالِبِ الْعَبْدِ طُرُقًا خَاصَّةً عَلَىٰ وُجُوهٍ خَاصَّةٍ، وَقَصَرَ الْخَلْقَ عَلَيْهَا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْخَيْرَ فِيهَا، وَأَنَّ الشَّرَّ فِي تَعَدِّيهَا إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ الرَّسُولَ ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. فَالْمُبْتَدِعُ رَادٌّ لِهَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ ثَمَّ طُرُقًا أُخَرَ، لَيْسَ مَا حَصَرَهُ الشَّارِعُ بِمَحْصُورٍ، وَلَا مَا عَيَّنَهُ بِمُتَعَيِّنٍ، كَأَنَّ الشَّارِعَ يَعْلَمُ وَنَحْنُ أَيْضًا نَعْلَمُ، بَلْ رُبَّمَا يَفْهَمُ مِنِ اسْتِدْرَاكِهِ الطُّرُقَ عَلَىٰ الشَّارِعِ، أَنَّهُ عَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ الشَّارِعُ، وَهَذَا إِنْ كَانَ مَقْصُودًا لِلْمُبْتَدِعِ؛ فَهُوَ كُفْرٌ بِالشَّرِيعَةِ وَالشَّارِعِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَقْصُودٍ؛ فَهُوَ ضَلَالٌ مُبِينٌ.

وَإِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ أَشَارَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رضي الله عنه، إِذْ كَتَبَ لَهُ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَأَةَ يَسْتَشِيرُهُ فِي بَعْضِ الْقَدَرِيَّةِ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالِاقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ، وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ فِيمَا قَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ وَكُفُوا مُؤْنَتَهُ.

فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَرَفَ مَا فِي خِلَافِهَا مِنَ الْخَطَأِ وَالزَّلَلِ وَالْحُمْقِ وَالتَّعَمُّقِ.

فَارْضَ لِنَفْسِكَ بِمَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ قَدْ كُفُّوا وَهُمْ كَانُوا عَلَىٰ كَشْفِ الْأُمُورِ أَقْوَىٰ، وَبِفَضْلٍ كَانُوا فِيهِ أَحْرَىٰ. فَلَئِنْ قُلْتُمْ: أَمْرٌ حَدَثَ بَعْدَهُمْ، مَا أَحْدَثَهُ بَعْدَهُمْ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ سُنَنِهِمْ، وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ لَهُمُ السَّابِقُونَ، فَقَدْ تَكَلَّمُوا مِنْهُ بِمَا يَكْفِي، وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي، فَمَا دُونَهُمْ مُقَصِّرٌ، وَمَا فَوْقَهُمْ مَحْسَرٌ، لَقَدْ قَصَرَ عَنْهُمْ آخَرُونَ [فَجَفَوْا، وَطَمِحَ عَنْهُمْ] فَغَلَوْا وَأَنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَىٰ هُدًىٰ مُسْتَقِيمٍ.

ثُمَّ خُتِمَ الْكِتَابُ بِحُكْمِ مَسْأَلَتِهِ.

فَقَوْلُهُ: «فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَرَفَ مَا فِي خِلَافِهَا» ؛ فَهُوَ مَقْصُودُ الِاسْتِشْهَادِ.

وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْمُبْتَدِعَ قَدْ نَزَّلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْمُضَاهِي لِلشَّارِعِ ؛ لِأَنَّ الشَّارِعَ وَضَعَ الشَّرَائِعَ، وَأَلْزَمَ الْخَلْقَ الْجَرْيَ عَلَىٰ سُنَنِهَا، وَصَارَ هُوَ الْمُنْفَرِدَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ حَكَمَ بَيْنَ الْخَلْقِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ التَّشْرِيعُ مِنْ مُدْرَكَاتِ الْخَلْقِ لَمْ تُنَزَّلِ الشَّرَائِعُ، وَلَمْ يَبْقَ الْخِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا احْتِيجَ إِلَىٰ بَعْثِ الرُّسُلِ عليهم السلام.

فَهَذَا الَّذِي ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللهِ قَدْ صَيَّرَ نَفْسَهُ نَظِيرًا وَمُضَاهِيًا لِلشَّارِعِ، حَيْثُ شَرَعَ مَعَ الشَّارِعِ، وَفَتَحَ لِلِاخْتِلَافِ بَابًا، وَرَدَّ قَصْدَ الشَّارِعِ فِي الِانْفِرَادِ بِالتَّشْرِيعِ، وَكَفَىٰ بِذَلِكَ.

وَالْخَامِسُ: أَنَّهُ اتِّبَاعٌ لِلْهَوَىٰ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِلشَّرْعِ، لَمْ يَبْقَ

لَهُ إِلَّا الْهَوَىٰ وَالشَّهْوَةُ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ وَأَنَّهُ ضَلَالٌ مُبِينٌ.

أَلَا تَرَىٰ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦].

فَحَصَرَ الْحُكْمَ فِي أَمْرَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا عِنْدَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ وَالْهَوَىٰ، وَعَزَلَ الْعَقْلَ مُجَرَّدًا إِذْ لَا يُمْكِنُ فِي الْعَادَةِ إِلَّا ذَلِكَ.

وَقَالَ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الكهف: ٢٨]، فَجَعَلَ الْأَمْرَ مَحْصُورًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ: اتِّبَاعِ الذِّكْرِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ.

وَقَالَ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [القصص: ٥٠]. وَهِيَ مِثْلُ مَا قَبْلَهَا.

وَتَأَمَّلُوا هَذِهِ الْآيَةَ؛ فَإِنَّهَا صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ هُدَىٰ اللهِ فِي هَوَىٰ نَفْسِهِ، فَلَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْهُ. وَهَذَا شَأْنُ الْمُبْتَدِعِ، فَإِنَّهُ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًىٰ مِنَ اللهِ. وَهُدَىٰ اللهِ هُوَ الْقُرْآنُ.

○ الأَدِلَّةُ مِنَ النَّقْلِ عَلَى ذَمِّ الْبِدَعِ:

يقول الشاطبي: أَحَدُهُمَا: مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَمِّ مَنِ ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللهِ فِي الْجُمْلَةِ:

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ

﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧].

فَهَذِهِ الْآيَةُ أَعْظَمُ الشَّوَاهِدِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ تَفْسِيرُهَا: فَصَحَّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّهَا قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ٧]؟ قَالَ: «**فَإِذَا رَأَيْتِهِمْ فَاعْرِفِيهِمْ**».

وَصَحَّ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧] إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ**».

وَهَذَا التَّفْسِيرُ مُبْهَمٌ.

وَلَكِنَّهُ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ عَنْ عَائِشَةَ أَيْضًا، قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] الْآيَةَ قَالَ: «**فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ، فَهُمُ الَّذِينَ عَنَىٰ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**».

وَهَذَا أَبْيَنُ، لِأَنَّهُ جَعَلَ عَلَامَةَ الزَّيْغِ الْجِدَالَ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا الْجِدَالُ مُقَيَّدٌ بِاتِّبَاعِ الْمُتَشَابِهِ.

فَإِذًا، الذَّمُّ إِنَّمَا لَحِقَ مَنْ جَادَلَ فِيهِ بِتَرْكِ الْمُحْكَمِ - وَهُوَ أُمُّ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُ، وَالتَّمَسُّكِ بِمُتَشَابِهِهِ.

قلت: (محمد): ثم ذكر الشاطبي آيات بعد ذلك وعلَّق عليها، وسأكتفي بذكر الآيات، وتعليقات يسيرة جدًا علىٰ بعضها عند الضرورة، ومن أراد الزيادة والتوسع فليرجع لكتاب الاعتصام للإمام الشاطبي.

* قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

* وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢]. قُرِئَ: «فَارَقُوا دِينَهُمْ».

وَفُسِّرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمُ الْخَوَارِجُ. وَرَوَاهُ أَبُو أُمَامَةَ مَرْفُوعًا.

وَقِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ.

* وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْ لَبَّسَكُمْ شِيَعًا هُوَ الْأَهْوَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ.

وَيَكُونُ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]: تَكْفِيرُ الْبَعْضِ لِلْبَعْضِ حَتَّىٰ يَتَقَاتَلُوا، كَمَا جَرَىٰ لِلْخَوَارِجِ حِينَ خَرَجُوا عَلَىٰ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَالْآيَاتُ الْمُصَرِّحَةُ وَالْمُشِيرَةُ إِلَىٰ ذَمِّهِمْ وَالنَّهْيِ عَنْ مُلَابَسَةِ أَحْوَالِهِمْ كَثِيرَةٌ، فَلْنَقْتَصِرْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَا، فَفِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ الْمَوْعِظَةُ لِمَنِ اتَّعَظَ، وَالشِّفَاءُ

لِمَا فِي الصُّدُورِ. (١)

۞ مَا جَاءَ مِنَ الأَحَادِيثِ فِي ذَمِّ الْبِدَعِ وَأَهْلِهَا:

✍ **يقول الشاطبي**: الْوَجْهُ الثَّانِي مِنَ النَّقْلِ: مَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَنْقُولَةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: وَهِيَ كَثِيرَةٌ تَكَادُ تَفُوتُ الْحَصْرَ؛ إِلَّا أَنَّا نَذْكُرُ مِنْهَا مَا تَيَسَّرَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ الْبَاقِي وَنَتَحَرَّىٰ فِي ذَلِكَ بِحَوْلِ اللهِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الصِّحَّةِ.

* فَمِنْ ذَلِكَ مَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ**».

* وَفِي رِوَايَةٍ لِـ مُسْلِمٍ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ**».

وَهَذَا الْحَدِيثُ عَدَّهُ الْعُلَمَاءُ ثُلُثَ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُ جَمَعَ وَجْهَ الْمُخَالَفَةِ لِأَمْرِهِ عليه السلام، وَيَسْتَوِي فِي ذَلِكَ مَا كَانَ بِدْعَةً أَوْ مَعْصِيَةً.

* وَخَرَّجَ مُسْلِمٌ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

* وَفِي رِوَايَةٍ؛ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ، يَحْمَدُ اللهَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: **مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**».

---

(١) الاعتصام للشاطبي: (١/ ٧١/ ٩١). باختصار كبير.

* وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ فِي النَّارِ**».

وَذَكَرَ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه كَانَ يَخْطُبُ بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ.

* وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «**إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ: الْكَلَامُ، وَالْهُدَىٰ، فَأَحْسَنُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَأَحْسَنُ الْهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ، أَلَا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، إِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**».

* وَفِي لَفْظٍ: «**غَيْرَ أَنَّكُمْ سَتُحْدِثُونَ وَيُحْدَثُ لَكُمْ، فَكُلُّ مُحْدَثَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**». وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَخْطُبُ بِهَذَا كُلَّ خَمِيسٍ.

* وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْهُ: «**إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ: الْهُدَىٰ، وَالْكَلَامُ، فَأَفْضَلُ الْكَلَامِ أَوْ أَصْدَقُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَأَحْسَنُ الْهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، أَلَا لَا يَتَطَاوَلَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، وَلَا يُلْهِيَنَّكُمُ الْأَمَلُ، فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، أَلَا إِنَّ بَعِيدًا مَا لَيْسَ آتِيًا**».

* وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْهُ: «**أَحْسَنُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنُ الْهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**، وَ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤]».

* وَرَوَىٰ ابْنُ مَاجَهْ مَرْفُوعًا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**». وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ. (١)

✍ **ثم قال ابن هبيرة:** وكان مقام ابن سمعون رحمه الله، وإن كان لَهُمْ مبغضًا

(١) الاعتصام للشاطبي: (١/ ٩٢/ ٩٤). وانظر بقية الأحاديث في كتاب الاعتصام.

من حيث البدعة، فإنه لهم راحمًا من حيث المعرفة فهو يحرص علىٰ هداهم.

فقد كان الإمام أحمد - رحمه الله - أَعْلَىٰ مقامًا من ابن سمعون حيث كان من دعائه «اللهم ما كان من هذه الأمة علىٰ غير الحق وهو يظن أنه علىٰ الحق فرده إلىٰ الحق حتىٰ لا يضل من هذه الأمة أحد».

✍ **وهنا لنا وقفة:** إذا كان ابن سمعون رحمه الله مبغضًا لأهل البدع من حيث البدعة، راحمًا لهم من حيث المعرفة فهو يحرص علىٰ هداهم.

وهكذا يجب أن يكون حال المسلم لأنه لابد أن يكون رحيمًا بالناس، حريصًا علىٰ هدايتهم، وصلىٰ الله علىٰ رسولنا ﷺ الذي كاد يهلك نفسه من الحزن علىٰ عدم إيمان قومه قال تعالىٰ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣].

- والإمام أحمد كان أَعْلَىٰ مقامًا من ابن سمعون حيث كان من دعائه «اللهم ما كان من هذه الأمة علىٰ غير الحق، وهو يظن أنه علىٰ الحق فرده إلىٰ الحق حتىٰ لا يضل من هذه الأمة أحد». فماذا نقول علىٰ مقام أكمل الخلق ﷺ في حرصه علىٰ هداية الناس جميعًا، وماذا نقول علىٰ رحمته ﷺ.

۞ صور من رحمة النبي ﷺ:

خلق الرحمة وصف الله به رسوله ﷺ في القرآن في قوله تعالىٰ:

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، هذا الخلق من أخلاقه العظيمة ﷺ التي تجلت مع كل العالمين، ليس مع المؤمنين فقط، ولكن كان رحمة لجميع الأمم وجميع العالمين، الجن والإنس والدواب والطيور والحيوانات، فالنبي ﷺ رحمة لهم أجمعين.

* قَالَ عَبْدُ اللهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**». (١)

* وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». (٢)

(١) صحيح البخاري (٣٤٧٧).
(٢) صحيح البخاري: (٣٢٣١).

فما كان مقصوده ﷺ إلا أن يعبد الله فلا يشرك به شيء، ولا يبالي في سبيل ذلك بما أصابه، فإذا وحد معبوده حصل مقصوده، وإذا عبد محبوبه حصل مطلوبه، وإذا ذكر ربه رضي قلبه، وأما نفسه فما يبالي بما أصابه في سبيل ربه، علىٰ حد قول القائل:

إنْ كان سرَّكُمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ ألَمُ

لقد امتدح الله رسوله ﷺ بالرحمة، وأخبره أنه ألف القلوب بالرحمة، ولو كان غير ذلك لما تألفت له قبائل العرب، ولو أنفق ما في الدنيا من ذهب وفضة.

فالعرب أمة مبعثرة همجية ما لم يسيطر عليها الإسلام، وهي أمة مشاغبة متمردة ثائرة، ولذلك لم يكن لها حضارة، وثقافة، ولم تكن لها دولة حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ بلا إله إلا الله، وألف بين قلوبهم، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣] فكان عليه الصلاة والسلام يمتاز بالرحمة، حتىٰ يقول الله تبارك وتعالىٰ له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: لو سُسْتَهم بالشدة والجبروت والسفك؛ لتفرقوا وتبعثروا وما اجتمعوا لك أبدًا.

يأتي الرجل يحمل من الحقد والحسد والضغينة والقتل للرسول ﷺ الأمر العظيم، فيعفو عنه ﷺ ويتبسم له، فيعود حبيبًا قريبًا إلىٰ قلب المصطفىٰ ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

مِيزَانُ
القِرَاءَةِ فِي لُغَةِ الكِلَاب

ميزان القراءة في لغة الكلاب

✍ **يقول صاحب الموازين حفظه الله:**

أورد ابن الجوزي ﷺ هذه القصة: قال الحسين بن غالب الحربي: كنا جلوسا عند أبي الحسين بن سمعون في مجلسه، فجاء قومٌ معهم كلابُ الصيد، فنبحَتْ عليها كلابُ المحَلَّة.

✍ **فقال ابن سمعون:** سبحان الله! كَأَنَّ هَذِهِ حَادَثَتْ هَذِهِ، فقالت هذه الكلاب الأهلية لكلاب الصيد: يا مساكين، رغبتُم في مطاعم الملوك فسَوْجَروكم بالحديد (١)، ولو قَنِعْتُم بالمنبوذ مثلَنا لخلَصْتم من رِقِّ العبودية.

فقالت لها كلاب الصيد: خَفِيَ عَلَيْكُم حالُنا، فإنهم لمَّا رأَوْنا أهلًا للخدمة، حبسونا عليها، وقاموا لنا بالكفاية.

قالت الكلاب الأهلية: لوكان كما قلتُم لكان أحدُكم إذا كَبِرَ عرفوا له حقَّ الخدمة، ونرىٰ أحدَكم إذا كَبِرَ طردوه، فصار معنا.

قالت كلاب الصيد: ما تركونا لِما ذكرتُم، ولكن لمَّا قَصَّرنا في الخدمة طردونا، وكلُّ مقصرٍ فيما يجب عليه مطرود. (٢)

قلت: لا يجيد الاعتبار إلا أولو الأبصار.

---

(١) يعني وضعوا في أعناقكم السلاسل يقودونكم بها.
(٢) راجع كتاب: صفة الصفوة/ ٢/ ٤٧٥

ولا يستطيع كشف الأحوال والمواقف إلا من كان بالله عارف.

ولا يدرك حقائق اللغات إلا من تفضل الله عليه بالهبات.

ولا يفهم معاني وأسرار النباح إلا من أسلم وجهه للفتاح.

وإن بعض الكلاب يفضل علىٰ كثير ممن لبس الثياب.

۞ شرح الميزان:

✍ **يقول صاحب الموازين حفظه الله:** أورد ابن الجوزي ﷺ هذه القصة.

✍ **وهنا لنا إشارة:**

إن صاحب الموازين يوقفنا مع قصة تاريخية، ويستنبط منها دروسًا وعبرًا وفوائد، وهذا منهج قرآني ونبوي واضح.

ولنتأمل هذا القول: يقول أحد العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالىٰ يثبت الله بها قلوب أوليائه، قال: وشاهده قوله تعالىٰ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود: ١٢٠].

فهذه إشارة إلىٰ فائدة الحكايات والقصص الحق الذي ليس بكذب، مثل قصص القرآن الكريم والقصص الذي جاء في السيرة النبوية، فهذه الحكايات هي جنود من جنود الله سبحانه وتعالىٰ يثبت الله بها قلوب أوليائه.

✍ **ويقول الإمام أبو حنيفة** ﷺ تعالىٰ: الحكايات عن العلماء

ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم. (١)

- قال الحسين بن غالب الحربي: كنا جلوسا عند أبي الحسين بن سمعون في مجلسه.

وهنا لنا وقفة مع قول الحسين بن غالب الحربىٰ: كنا جلوسًا عند أبي الحسين بن سمعون في مجلسه. ووقفتنا حول مجالسة الصالحين.

✍ **فأقول مستعينًا بالله:**

إن الإنسان جُبِل علىٰ حب مخالطة الآخرين، وأن يتخذ له جليسًا يعينه علىٰ مصالحه في دنياه وأُخراه، والناس متفاوتون في دينهم وأخلاقهم؛ فمنهم الخيِّر الفاضل الذي يُنتفع بصحبته وصداقته، ومنهم السيِّئ الذي يتضرَّر بصداقته ومعاشرته.

وإن المرء يتأثر بجليسه، ويعرف بمجالسه، والمسلم بمفرده يضعف عن عبادة ربه، لذا لابد له من جليس يقوي عضده للسير إلىٰ ربه.

والصحبة لها شأن كبير في الإسلام، فالأنبياء بل أولو العزم من الرسل اتخذوا لهم أصحابًا فعيسىٰ(٢) عليه السلام يقول: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف:

(١) أصول الوصول إلىٰ الله تعالىٰ (ص: ٩٤).

(٢) عن جعفر أبي غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسىٰ ابن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريين، تحببوا إلىٰ الله عز وجل ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم. قالوا: يا نبي الله، فمن نجالس؟ قال: جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم في دنياكم عمله. انظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد - الأدب والزهد: (٢٠/ ٣٦٦).

١٤]. أي من يعينني في الدعوة إلىٰ الله، ونبينا محمد - ﷺ - اتخذ له صاحبًا في حياته قال سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فأخبر الله ﷻ بأن لنبينا صاحبًا ويقول عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي**». (١)

وقد كان النبي - ﷺ - يزور صاحبه أبا بكر في داره في كل يوم مرتين، تقول عائشة رضي الله عنها: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً.....». (٢)

۞ الحث على مجالسة الصالحين:

إن مصاحبة الصالحين حتىٰ لو كانوا فقراء أو ضعفاء خير وبركة في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، ولقد أمر الله تعالىٰ نبيه محمدًا - ﷺ - والأمر عام له ولأمته - بلزوم الصالحين، ومصابرة النفس علىٰ مصاحبتهم، والبقاء معهم، خصوصًا الفقراء منهم والضعفاء، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِؤُونَ عَلَيْنَا، قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ،

(١) صحيح البخاري: (٣٦٥٦).
(٢) صحيح البخاري: (٤٧٦).

وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ نَسِيتُ اسمَيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]. (١)

وعن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً؛ وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(٢).

✍ **يقول صاحب فتح المنعم** (٣) في تعليقه علىٰ هذا الحديث: عدوىٰ الأخلاق السيئة كعدوىٰ الأمراض ومجالسة الصالحين حماية من السيئات لأن مجلسهم يخلو من الذنوب بل وتحفه ملائكة الرحمة ويقول الله لملائكته عنهم وقت ذكرهم لله أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت لهم فيقولون يا ربنا إن فيهم فلانا ليس منهم وإنما جاء لحاجة من أحدهم فيقول لهم هم القوم لا يشقىٰ جليسهم نعم فجليسهم إما أن يذكر الله معهم وإما أن يستمع لذكرهم وإما يشمله نور مجلسهم تمامًا كالجلوس بجوار حامل المسك وبائعه إما أن تشتري منه فتحمل معك ما ينفعك وإما أن يهديك لمسة من

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤١٣).
(٢) صحيح مسلم: (٢٦٢٨).
(٣) صاحب فتح المنعم في شرح صحيح مسلم هو فضيلة الأستاذ الدكتور: موسىٰ شاهين لاشين، ولقد كان ﷺ تعالىٰ، مشرفًا علىٰ رسالة الدكتوراه التي أعدَّها صاحب موازين الأفهام فضيلة الدكتور: محمد سعد قاسم حفظه الله ونفع بعلمه.

مسكه وإما أن تنتفع فترة جواره بالريح الطيبة، أما مجالسة أهل الشر والفساد فهي كمجالسة الحداد الذي ينفخ في الكير ليصنع الحديد فيتطاير منه الشرر فيحرق ثيابك أو يصيبك دخانه وريحه الخبيثة ومجالسة أهل الشر والفساد إما أن يعديك شرهم فيسحبك إلىٰ الفساد في الأرض وإما أن تسمع منهم ما يضر ولا ينفع فتحيط بك الشياطين كما تحيط بهم وإما علىٰ الأقل أن يضعك الناس في حزبهم وسمعتهم وإن لم تكن منهم ولا علىٰ طريقتهم ومنوالهم ورحم الله امرأ أحب الصالحين وأهل الخير وجالسهم وكره الفاسدين وأهل الشر فجانبهم. (١)

وعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**». (٢)

قوله: «**عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ**»: أي علىٰ عادة صاحبه وطريقته وسيرته فلينظر أي: يتأمل ويتدبر من يخالل، فمن رضي دينه وخلقه خَالَلَهُ ومن لا تجنَّبَهُ فإن الطباع سراقة. (٣)

قال الشاعر:

عَنِ المرْءِ لَا تْسأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدِي

والإنسان مجبول علىٰ التأثر بصاحبه وجليسه، والأرواح جنود مجندة؛ روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبي

(١) انظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم (١٠/ ١٢٧).
(٢) سنن أبي داود: (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة: (٩٢٧).
(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود: (١٣/ ١٢٣).

ﷺ قال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». (١)

وتألفها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين متقابلين، فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ما خلقت عليه، فيميل الأخيار إلىٰ الأخيار، والأشرار إلىٰ الأشرار. (٢)

✍ **ثم قال: فجاء قومٌ معهم كلابُ الصيد، فنبحَتْ عليها كلابُ المحَلَّة.**

وهنا نقول: إن الكلاب نوعان: كلاب صيد، وكلاب محلة: (شوارع).

- وهنا فارق جوهري خطير: كلاب الصيد كانوا في صحبة قوم ينتفعون بهم، وأمَّا كلاب المحلة، فهم كلاب السكك، أو كلاب الشوارع.

- والذي فضَّل كلاب الصيد علىٰ كلاب السكك والشوارع هو العلم، لأن كلب الصيد معلَّم ولذا يؤكل صيده كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

أما كلاب الشوارع فهي كلاب جاهلة، لا يستفاد منها، ولا يؤكل صيدها، بل تؤذي الناس أحيانًا وتقطع الطريق عليها.

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٣٨).
(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٣/ ١٢٤).

✍ **فقال ابن سمعون**: سبحان الله!

وهنا نقول: إن ابن سمعون رأىٰ شيئًا وفهَّمه الله إياه [١]، فقال ﷺ: سبحان الله!

✍ **ثم قال ابن سمعون**: كَأَنَّ هَذِهِ حَادَثَتْ هَذِهِ.

وهنا نقول: إن ابن سمعون كان حصيفًا في اختياره لكل لفظة من ألفاظه، فهو يقول: كأنَّ هَذِهِ حَادَثَتْ هَذِهِ، وهذا يبين ويوضح الرمزية التي أرادها ابن سمعون من جانب، وصاحب الموازين من جانب آخر، فهي قصة رمزيةٌ[٢]، ولكنَّ المعاني المرادة منها، فيها عمق كبير، كما سيتضح لك أيها القارئ الكريم خلال الشرح والتوضيح.

- وما أراده صاحب الموازين حفظه الله تعالىٰ من هذه القصة: هو بيان الفارق بين كلام الرويبضة، وكلام أهل العلم والفقه والاستنباط.

- ومن هنا أيها القارئ استصحب معي فكرة حوار بين رويبضة، وهم المرموز لهم بكلاب الشوارع والسكك، وبين أفاضل أكارم أصحاب فهم وعقل وعلم ودين، وهم المرموز لكلامهم بكلام كلاب الصيد.

- وقبل الاستطراد في بيان الميزان. أقول: من هم الرويبضة وما هي صفاتهم؟

---

(١) وسيأتي تفصيل ذلك عند قول صاحب الموازين: ولا يفهم معاني وأسرار النباح إلا من أسلم وجهه للفتاح.

(٢) وأنا أنبه علىٰ ذلك حتىٰ لا يكون هناك لبس، ولا يُحْمَل الكلام علىٰ غير المراد منه.

- عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ** (١) **سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟، قَالَ: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ** (٢) **يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»(٣) (٤).

- وفي لفظ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَمَامَ الدَّجَّالِ سِنِينَ خَدَّاعَةً، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**». قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**الْفَاسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**».(٥)

وهذا يعني اختلال المقاييس والموازين:

✍ **يقول الدكتور الأشقر**: أخبرنا الرسول ﷺ أن المقاييس التي يُقَوَّم بها الرجال تختل قبل قيام الساعة، فيقبل قول الكذبة ويصدق، ويرد علىٰ الصادق خبره، ويؤتمن الخونة علىٰ الأموال والأعراض، ويخون الأمناء ويتهمون، ويتكلم التافهون من الرجال في القضايا التي تهم عامة الناس، فلا يقدمون إلا الآراء الفجّة، ولا يهدون إلا للأمور المُعْوجة، ومن تأمل في أحوال عالمنا اليوم وجد أننا نعيش هذا العصر الذي أخبر الرسول ﷺ عنه،

(١) (حم) ١٣٣٢٤ وقال الشيخ شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.
(٢) التافه: قليل العلم.
(٣) (جة) ٤٠٣٦، (حم) ٨٤٤٠،صَحِيح الْجَامِع: ٣٦٥٠، الصَّحِيحَة: ١٨٨٧، ٢٢٥٣
(٤) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٢/ ٣٦٥)
(٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧/ ٢٨٤)

فالكذبة من الكفار والمشركين الذين يملكون وكالات الأنباء والإذاعات ومن علىٰ طريقهم يصدَّقون، وأهل الصدق والعدل يكذَّبون، والأمة الإسلامية تضع أموالها في أيدي الخونة الكفرة، ويؤتمنون علىٰ ذلك، ويخون المسلمون ولا يؤتمنون علىٰ شيء من ذلك، وقد تكلم في شؤون العالم التافهون من الرجال، وقادوه قيادة هوجاء توشك أن تدمر البشرية جمعاء. (١)

- ثم إنني أسأل: هل أتاك حديثُ (رويبضةُ) الإعلام؟!

يُعطيك من طرفِ اللسان حلاوةً ... ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ

وقد يظُنُّ ظَانٌّ أنني أقصد اليهود أو النصارىٰ أو غيرهم ممن لا يُستغرب منهم مثل هذا..

ولكنني أقصد أناسًا من بيننا.. ممن يزعمون أنهم ينتسبون إلىٰ ديننا.. جعلوا بُغيةَ الحضارةً مطيَّة لنشر أفكارهم.. وحرية التعبير والمصداقية عذرًا لنشر قُبحهم وفجورهم.. إنني أقصد حقيقةً: بعض أولئك الرويبضة التي استولت علىٰ إعلامنا.. وتبجَّحت في صحفنا.. تجدهم في كل مكانٍ يهيمون.. وعند كل حدثٍ ينذِبون ويصرخون..

يهرفون بما لا يعرفون.. ويقولون مالا يفعلون.. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ﴾ [المنافقون: ٤].

(١) القيامة الصغرىٰ (ص: ١٩٣). بتصرف.

حاربوا القيَم والمبادئ.. وهاجموا المنهج والثوابت.. وخدموا أعداء الدين.. يكذبون ولا يُستغرب الكذبُ ممن رأس ماله الكذب..

وليس بخافٍ علي أحد تلك البرامج الهابطة اللاتي قد سعوْا في إعدادها.. والأقلام النَّتِنة التي لم تترك خلُقًا شريفًا ولا منهجًا سليمًا إلا وحاربته.. استهزاءٌ بالهيئات.. وإنقاصٌ للعلماء والدعاة.. وإسقاطٌ للرموز والقيَم.. واستخفاف بحدود الله سبحانه وتعالىٰ.. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]... ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

إنني أذكِّر هؤلاء بقول الحق سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦]... وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦﴾ [الكهف: ١٠٦].

أقول لهؤلاء: تذكروا هذا الحديث عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][1] فالله يُمهِل ولا يُهمِل.. إن أخذه للظالمين أليمٌ شديد.. وبطشه حقٌّ أكيد..

إلىٰ ديَّان يوم الحشر نمضي ... وعند الله تجتمعُ الخصومُ

(١) صحيح البخاري (٤٦٨٦).

ثم إنني أهمس في أذن كل غيور.. بأن النصر مع الصبر.. وأن الفرج مع الكرب.. وأنَّ المحنة يعقبها منحة.. بإذن الله سبحانه وتعالىٰ..

فمهما طال الظلام فلابد للضياء أن يشرق.. ومهما اشتدَّ الخطْبُ فلا بد للفجور أن ينجلي.. إنَّ مع الشدة يُسرًا.. ومع الصبر نَصْرًا.. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

✍ **يقول ابن سمعون**: فقالت هذه الكلاب الأهلية لكلاب الصيد: يا مساكين.

✍ **والآن نبدأ مستعينين بالله في بيان المراد:**

كلاب السكك تقول لكلاب الصيد: يا مساكين.

ولنتأمل: كلاب السكك ينظرون لكلاب مقيدة من أجل الصيد، ولقلة عقلهم، واختلال موازينهم يقولون لهم: يا مساكين.

والرمزية المرادة أن أهل الجهل والضلال، وهم الرويبضة، ينظرون إلىٰ المقيدين بأوامر ونواهي الشرع والدين علىٰ أنهم مساكين، وكأنهم يعيرونهم بذل عبودية الأمر والنهي، في حين أن العبودية بالأمر والنهي هي الحرية الكاملة.

- بل إن أولَ مراتبِ التعظيمِ هي تعظيمُ الأمرِ والنهيِ وقد ذكر ذلك ابنُ القيمِ فقال: «تعظيمُ الأمرِ والنهيِ هو ناشئٌ عن تعظيمِ الآمرِ الناهي فإن اللهَ

تعالىٰ ذمَّ من لا يعظِّمهُ ولا يعظِّمُ أمرَهُ ونهيَهُ، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرِها: ما لكم لا تخافونَ للهِ تعالىٰ عظمةً.

وما أحسنَ ما قالَه شيخُ الإسلامِ في تعظيمِ الأمرِ والنهيِ: «هو ألا يُعَارَضَا بترخصٍ جافٍ، ولا يُعرَّضا لتشديدٍ غالٍ ولا يُحْمَلَا علىٰ علةٍ توهنُ الانقيادَ».

ومعنىٰ كلامِه: أن أولَ مراتبِ تعظيمِ الحقِّ ﷻ: تعظيمُ أمرِه ونهيِه، وذلك لأن المؤمنَ يعرِفُ ربَّه ﷻ برسالتِه التي أرسلَ بها رسولَ اللهِ ﷺ إلىٰ كافةِ الناسِ، ومقتضاها: الانقيادُ لأمرِهِ ونهيِهِ، وإنما يكونُ ذلك بتعظيمِ أمرِ اللهِ ﷻ واتباعِه، وتعظيمِ نهيِه واجتنابِه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالىٰ ونهيه واجتنابه دالًّا علىٰ تعظيمِه لصاحبِ الأمرِ والنهيِ، ويكونُ بحسبِ هذا التعظيمِ من الأبرارِ المشهودِ لهم بالإيمانِ والتصديقِ وصحةِ العقيدةِ، والبراءةِ من النفاقِ الأكبرِ. فإن الرجلَ قد يتعَاطَىٰ فعلَ الأمرِ لنظرِ الخلقِ وطلبِ المنزلةِ والجاهِ عندَهم، ويتَّقِي المناهِيَ خشيةَ سقوطِه من أعينِهم، وخشيةَ العقوباتِ الدنيويَّةِ من الحدودِ التي رتَّبَها الشارعُ علىٰ المناهِي، فهذا ليس فعلُه وتركه صادرًا عن تعظيمِ الأمرِ والنهيِ، ولا عن تعظيمِ الآمرِ الناهِي». (١)

(١) الوابل الصيب (ص: ١٧ - ١٨).

۞ علامات تعظيم أوامر الله:

علامات تعظيم أوامر الله أن يذكر العبد الآمر بها.. ويراعي أوقاتها وحدودها.. ويأتي بأركانها وواجباتها وسننها وآدابها.. ويحرص علىٰ كمالها.. ويسارع إلىٰ أدائها.. ويفرح بها.. ويحزن عند فواتها، كمن فاتته صلاة الجماعة ونحوها.

وأن يفرح بالطاعات.. ويسر برؤية الطائعين، وأن يغضب لله إذا انتهكت محارمه.. ويحزن عند معصيته.. ولا يسترسل مع الرخص.. ولا يكون دأبه البحث عن علل الأحكام.. بل يفعل الطاعات، ويجتنب المعاصي؛ لأن الله أمره بذلك.. فإن ظهرت له الحكمة حمله ذلك علىٰ مزيد الانقياد والعمل.

وكل ما أمر الله ورسوله به فيجب علىٰ المسلم القيام به حسب الاستطاعة كما قال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال النبي ﷺ: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**». (١)

وأما المنهيات فيجب اجتنابها مطلقًا كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

والله وحده هو عالم الغيب والشهادة، وهو الذي يقلب الليل والنهار،

(١) البخاري: (٧٢٨٨)، واللفظ له، ومسلم: (١٣٣٧).

ويقلب القلوب والأبصار، ويحيي الأرض بعد موتها.

وهو سبحانه الحاكم في حياة العباد، وليس لغيره أمر ولا نهي، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم، ولا خلق ولا تدبير.

فهذا كله اختص به ملك الملوك وحده لا شريك له.

وكل مسلم مأمور بفعل ما أمره الله ورسوله به، واجتناب ما نهىٰ الله ورسوله عنه، وإذا فعل المسلم المنهي عنه متعمدًا فهو آثم، إلا إذا كان مضطرًا فيباح له بقدر الضرورة كالأكل من الميتة أو الخنزير بقدر الحاجة ونحو ذلك وإذا فعل المنهي عنه ناسيًا أو جاهلًا فلا شيء عليه كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فقال الله: قد فعلت. وقوله ﷻ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

۞ من تلزمه الأوامر الشرعية، ومن لا تلزمه:

الأوامر الشرعية تلزم من يعلمها، وتمكن من فعلها، ومن لا يعلمها أو لم يتمكن من فعلها فلا تلزمه؛ لأن الوجوب مشروط بالعلم والقدرة، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

والعقوبة لا تكون إلا علىٰ ترك مأمور، أو فعل محظور بعد قيام الحجة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

والله تبارك وتعالىٰ له سنة في أمره وشرعه، وله سنة في خلقه، وله سنة في قضائه وقدره.

❍ الناس في حكم الله القدري مقهورون، وفي الحكم الشرعي مختارون:

وحكم الله القدري يمضي في الناس علىٰ غير إرادة منهم ولا اختيار، وإلىٰ جانبه حكم الله الشرعي الذي ينفذه الناس عن رضىٰ منهم واختيار، وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي، وهو كذلك من الله ولله، شأنه شأن الحكم القدري.

لكن القدري الناس فيه مقهورون، والثاني الناس فيه مختارون: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

فسبحان الذي خلق السموات والأرض بالحق، ليأمر عباده وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم كما قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢].

❍ أوامر الله التي كلفنا بها نوعان:

أحدها: ما نعرف وجه الحكمة فيه بعقولنا كالصلاة والزكاة والصيام وأكل الطيبات، وجلّ الشريعة من هذا النوع.

الثاني: ما لا نعرف وجه الحكمة فيه كرمي الجمار في الحج، والوضوء من أكل لحم الجزور، ونحو ذلك.

وكما يحسن من الله أن يأمر عباده بالنوع الأول، فكذلك يحسن الأمر منه بالنوع الثاني؛ لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل علىٰ كمال الانقياد؛ لاحتمال أن المأمور إنما أتىٰ به لما عرف بعقله وجه الحكمة والمصلحة فيه، أما

الطاعة في النوع الثاني فإنها تدل علىٰ كمال الانقياد ونهاية التسليم.

وإذا كان هذا في الأفعال ففي الأقوال مثله، وهو أن يأمرنا الله أن نتكلم بما نقف علىٰ معناه كالآيات، وتارة بما لا نقف علىٰ معناه كالحروف المقطعة في أوائل السور.

والمقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر، وظهور العبودية في هذا وهذا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧].

وإذا ترك رسول الله ﷺ أمرًا، فإن كان مطلقًا كان حكمنا كحكمه كترك الأكل متكئًا، وأنه لم ينتقم لنفسه، وأنه لا يصافح النساء في البيعة ونحو ذلك.

وإن تركه لسبب كان حكمنا كحكمه ﷺ حال وجود السبب، فإذا زال السبب زال الحكم ورجع إلىٰ الأصل.

✍ **وبعد هذا البيان والتوضيح لقضية الأمر والنهي أقول:**

إن الرويبضة والدهماء يحكمون علىٰ الأعلىٰ بأنه أدنىٰ، وعلىٰ الأدنىٰ بأنه أعلىٰ، وبالتالي هم مشفقون علىٰ من هو عبد لله في الدنيا، لأنه مقيد بسلاسل الأمر والنهىٰ، وكأن من يتحرر من عبودية الله هو الجيد.

- وهذه النظرة منهم نظرة جهل، فهم يحكمون علىٰ الأشياء ولكنَّ حكمهم حكم خاطئ باطل.

- ولذلك لابد من العلم الصحيح قبل الحكم علىٰ الشيء، بل يجب التعرف عليه من جميع جوانبه، ولنعلم أن الجهل أحيانا يتحكم في الإنسان ويقلب له الأمور، بحيث لا يكون مشفقًا علىٰ نفسه بل هو مشفق علىٰ غيره، مع أنَّ هذا الغير في الحقيقة والواقع خير منه وأفضل. (١)

- إن القرآن الكريم وضَّح لنا بعض الأشياء التي من فعلها فهو جاهل، وسأكتفي بذكر آية مع إشارات يسيرة، فتأملها وتدبرها رزقنا الله وإياك الفهم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧].

في هذه الآية يقول صاحب الموازين: إن الله يأمر فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ [البقرة: ٦٧]، وليس الآمر موسىٰ عليه السلام، ولكن الرد منهم جاء بخبث ودهاء فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا ﴾، مع أن سياق الكلام يستدعي أن يقولوا لموسىٰ عليه السلام: (أيتخذنا) ويريدون به الرد علىٰ الله مباشرة، لأن الآمر في الحقيقة هو الله، وموسىٰ عليه السلام مبلِّغ عن الله فقط، ولكنهم أصحاب خبث وجهل فقلبوا الأمور وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا ﴾، بحيث أنهم سيقولون نحن نرد علىٰ موسىٰ وليس عليك يا رب. (٢)

---

(١) كما هو حال كلاب السكك مع كلاب الصيد، فكلاب الشوارع مشفقة علىٰ كلاب الصيد، مع أن كلاب الصيد المعلمة المختارة في الحقيقة أفضل من كلاب السكك الجاهلة.

(٢) هذا الكلام سمعت مضمونه من شيخي وأستاذي صاحب الموازين أثناء جلسة في بيته قديمًا، وتحديدًا منذ خمسة عشر عامًا، وكان هذا اللقاء أوَّلَ لقاء بيني وبين فضيلته شخصيًّا. فجزاه الله عني خير الجزاء.

قلت: (محمد): وهذا هو منهج الرويبضة والفساق، الذين شبههم ابن سمعون بكلاب السكك والشوارع.

وفي هذه الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]. قاعدة وهي أنَّ من ردَّ حُكْم الله أو تباطأ فيه فهو جاهل. (١)

ثم قالت الرويبضة: رغبتُم في مطاعم الملوك.

إن الصورة هنا يرسمها لنا ابن سمعون برمزية عجيبة، فكلاب السكك (الرويبضة) ينظرون لكلاب الصيد (المتعلمون - العارفون)، نظرة شفقة كما سبق البيان والتوضيح، ثم هم يعللون كلامهم قائلين: لقد رغبتُم في مطاعم الملوك.

✍ **ومن هنا مستعينًا بالله أقول:**

كيف للعالم العارف أن لا يرغب في ما عند الله، ويطمع في رزقه

---

(١) والآيات كثيرة ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود: ٤٦]، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٥].

وعطاياه؟ والله هو الذي رغبنا، بل يجب علىٰ العالم العارف أن يكون كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ٣٢].

○ التّرغيب في الجنّة ونعيمها:

إن الله رغبنا في جنته ولذلك حفلت آي الذّكر الحكيم، ووردت الأحاديث الشّريفة بوصف الجنّة وما أعدّه الله فيها للمتّقين ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣٦]، ترغيبًا للمؤمنين وحثّا لهم علىٰ الطّاعات وتحمّل مشاقّ العبادة، ذلك أنّ الإنسان إذا علم أنّ الله قد أعدّ له دارا فيها كلّ ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، تولّدت عنده الرّغبة الصّادقة في أن يكون من أهل هذه الجنّة وسعىٰ لها سعيها فكان من المتّقين، ومن المحسنين، ومن الذّاكرين ومن المخبتين، ومن المنفقين، ومن الأوّابين المنيبين الّذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

ثم قالت الرويبضة: فسَوْجَروكم بالحديد.

إن أصل فكرة كلاب الحي (الرويبضة) هي إلغاء ارتباط الحرية والمتعة والنعيم الدائم، بفكرة الذل والأمر والنهي في الدنيا ولذلك هم يرون أهل الطاعة وأهل العلم مقيدين بسلاسل الأمر والنهي، ومن هذا الفهم قالوا هذه المقالة: فسَوْجَروكم بالحديد.

فالرويبضة منهجهم نفس منهج إبليس، فإبليس يقول: أنا لن أتقيد بأمرك

يا رب وأنا خير من آدم، كما يقول هؤلاء الكلاب الرويبضة، نحن أفضل حالا من المقيدين، فعندنا الشارع والطريق والهواء الطلق، فنتحرك بحرية لا يحبسنا أحد، ولا يعترضنا أحد.

ولهذا هم يرون الإذعان لله والتقيد بأوامره سبحانه سلاسل وقيود، وهذه مخالفة صريحة للمنهج الذي أراده الله للناس، ولنتأمل هذا الحديث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، قَالَ: «**خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ**».(١)

ثم قالت الرويبضة: ولو قَنِعْتُم بالمنبوذ مثلَنا لخلَصْتم من رِقِّ العبودية.

- **ولنتأمل أولًا**: دقة ابن سمعون في اختياره للألفاظ، فالصورة الرمزية التي أرادها ابن سمعون هنا: أن المنبوذ المتروك الدنيا. (٢)

وثانيًا: كيف يبدل هؤلاء الرويبضة المصطلحات فهم يقولون: (ولو قَنِعْتُم بالمنبوذ)، وهنا سؤال هل هناك قناعة بشيء منبوذ؟

والجواب، لا يقنع بالمنبوذ إلا جاهل، ولقد علمنا رسولنا أن لا نقنع بالمنبوذ.

ولنتدبر هذا الحديث: قَالَ عُمَرُ: وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ،

(١) البخاري: (٤٥٥٧). والمعنىٰ: (تأتون بهم) أي أسرىٰ مقيدين. (حتىٰ يدخلوا في الإسلام) يكون أسركم لهم سبب إسلامهم وتحصيل سعادة الدنيا والآخرة لهم.

(٢) بفضل من الله وتوفيق تكلمت عن الدنيا بشيء من التفصيل في كتابي: رسائل ربانية في آيات قرآنية عند هذه الرسالة الربانية: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ... ﴾ [الحديد: ٢٠].

وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**».(١)

وبعد أن قالت الرويبضة: ولو قَنِعْتُم بالمنبوذ مثلَنا لخلَصْتم من رِقِّ العبودية.

هنا جاء رد حكيم وفهم ثاقب من ابن سمعون في رمزيته، فقال: فقالت لها كلاب الصيد: خَفِيَ عَلَيْكُم حالُنا.

قلت: (محمد): إن كلاب الصيد والتي يُرْمَزُ بها هنا إلىٰ أهل العلم يقولون كلامًا دقيقًا، وهو: خَفِيَ عَلَيْكُم حالُنا.

✍ **وهنا لنا عدَّة إشارات:**

* **الإشارة الأولىٰ**: إن كلاب الحي (الرويبضة) نظروا للظاهر فقط، وبهذه النظرة الظاهرية نظروا إلىٰ أنفسهم أنهم طلقاء، ولم ينظروا إلىٰ أنهم يجالسون المزابل في الشوارع، بينما كلاب الصيد(أهل العبادة والعلم) يجالسون الأمراء.

ويجب أن نعلم أَنَّ كُلّ حَالٍ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ، أَوْ مَقَامٍ اتَّصَلَ بِهِ السَّيْرُ إِلَىٰ اللهِ، وَإِيثَارُ مُرَادِهِ عَلَىٰ مُرَادِ الْعَبْدِ، فَهُوَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ، وَإِنْ صَحِبَهُ الْوُقُوفُ عِنْدَهُ وَالرِّضَىٰ بِهِ، وَإِيثَارُ مُقْتَضَاهُ، مِنْ لَذَّةِ النَّفْسِ بِهِ وَطُمَأْنِينَتِهَا إِلَيْهَا، وَرُكُونِهَا إِلَيْهِ،

(١) صحيح البخاري: (٤٩١٣).

فَهُوَ حُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَيْهِ. (١)

كما يجب أن نعلم أنه لا يستحق القرب من الله، إلا من توافرت فيه شروط المعرفة، والْمَعْرِفَةُ هِيَ الْعِلْمُ الَّذِي يَقُومُ الْعَالِمُ بِمُوجِبِهِ وَمُقْتَضَاهُ، فَلَا تُطلق الْمَعْرِفَةُ عَلَىٰ مَدْلُولِ الْعِلْمِ وَحْدَهُ، بَلْ لَا يوصف بِالْمَعْرِفَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ عَالِمًا بِاللهِ، وَبِالطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَىٰ اللهِ، وَبِآفَاتِهَا وَقَوَاطِعِهَا، وَلَهُ حَالٌ مَعَ اللهِ تَشْهَدُ لَهُ بِالْمَعْرِفَةِ(٢)، فَالْعَارِفُ مَنْ عَرَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ اللهَ فِي مُعَامَلَتِهِ، ثُمَّ أَخْلَصَ لَهُ فِي قُصُودِهِ وَنِيَّاتِهِ، ثُمَّ انْسَلَخَ مِنْ أَخْلَاقِهِ الرَّدِيئَةِ وَآفَاتِهِ، ثُمَّ تَطَهَّرَ مِنْ أَوْسَاخِهِ وَأَدْرَانِهِ وَمُخَالَفَاتِهِ، ثُمَّ صَبَرَ عَلَىٰ أَحْكَامِ اللهِ فِي نِعَمِهِ وَبَلِيَّاتِهِ، ثُمَّ دَعَا إِلَيْهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ بِدِينِهِ وَآيَاتِهِ، ثُمَّ جَرَّدَ الدَّعْوَةَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ، وَلَمْ يَشُبْهَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَأَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِيدِهِمْ وَمَقَايِيسِهِمْ وَمَعْقُولَاتِهِمْ، وَلَمْ يَزِنْ بِهَا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ صَلَوَاتِهِ، فَهَذَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْعَارِفِ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، إِذَا سُمِّيَ بِهِ غَيْرُهُ عَلَىٰ الدَّعْوَىٰ وَالِاسْتِعَارَةِ. (٣)

الإشارة الثانية: لم ينظر الرويبضة للمآل الذي يترتب علىٰ الظاهر المليء بالشدة للمقيدين، فهم سيأخذون الحرية والرفعة في الآخرة، قال تعالىٰ:

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ١٩٠). بتصرف.

(٢) قال الخواص: أصابتني شهوة الرمان فخرجت في طلبه، فرأيت رجلًا في البرية والزنابير نحوه قد أذته، فقلت له: لو كان لك حال مع الله لدفع عنك ذلك. فقال: وأنت لو كان لك حال مع الله لدفع عنك شهوة الرمان!. انظر: نزهة المجالس ومنتخب النفائس (١/ ٥٨).

(٣) مدارج السالكين: (٣/ ٣١٦). بتصرف.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]، بينما سيكون أهل المعصية في القيود والسلاسل قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الإنسان: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

الإشارة الثالثة: إن الرويبضة دائمًا لهم نظرة قاصرة علىٰ المادية والمشاهد، مع أن رفعة القدر والمقام لا تكون بالتظاهر بمفاخر اللباس والطعام، ولا بحسن الهيئة ومنظر الأجسام، وإنما يكون باحتظاء القلوب بمعرفة الله، وتمكين اليقين من القلوب، واطلاعها علىٰ أسرار الغيوب، مع القيام بوظائف العبودية، أدبًا مع عظمة الربوبية، ونسيان النفوس والاشتغال عنها بالعكوف في حضرة القدوس، فأهل القلوب لا يعبؤُون بظواهر الأشباح، وإنما يعتنون بحياة الأرواح.

كَمِّلْ حقيقتك التي لم تَكْمُلِ ... والجسم دعه في الحضيض الأسفل

فقوت قلوبهم التواجد والأذكار، وحياة أرواحهم العلوم والأسرار، وأنشدوا:

بـالقوت إحيـاءُ الجسـوم، وذكـره ... تحيـا بـه الألبـاب والأرواح
هـو عيشـهم ووجـودهم وحيـاتهم ... حقًـا ورَوْح نفوسـهم والـرَّاح

وأمـا مـن عَظُـمَ جهلُـه، وكَثُـفَ حجابـه، فإنمـا ينظـر إلىٰ بهجـة الظـواهر وتزيينها بأنواع المفاخر، أو إلىٰ من عظم جاهه وكثرت أتباعه، وهذه نزعة جاهلية، حيث قالوا حين يُتلىٰ عليهم الوعظ والتذكير: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم: ٧٣]، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].(١)

فهم يعرفون الكثير عن الدنيا، بينما هم جهال بالآخرة، ولنتأمل وصف الله لحالهم قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]. (٢)

* **قال القشيري**: قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]: استغراقُهم في الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم بما مَنَعهم عن العلم بالآخرة. وقيمة كل امرئ عِلمُه كما في الأثر عن عليّ رضي الله عنه. قال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٣/ ٣٥٦).

(٢) وفي حال هؤلاء يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالْآخِرَةِ**» (البيهقي: (١٠/ ٣٢٧)، صحيح الجامع: (٨٢٦). الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا: يعلمون أمر معاشهم كيف يكتسبون، وكيف يتّجرون، ومتىٰ يغرسون ويزرعون، ومتىٰ يحصدون، وكيف يعيشون ويبلون، أما شأن الآخرة فهم عنها ساهون وبها جاهلون، لا يتفكرون فيها ولا لأجلها يعملون.

وقيمة كل امرئ مَا كَانَ يُتْقِنُهُ ... والجَاهِلُون لأَهْلِ العلْمِ أَعْدَاءُ

فأهل الدنيا في غفلة عن الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة، هم بوجودها، في غفلة عن الله. هـ. قلت[١]: وأهل المعرفة بالله لم يشغلهم عنه دنيا ولا آخرة. والله تعالىٰ أعلم.[٢]

والعجيب أن الله بعد هذه الآية قال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: ٨ - ٩].

فهو يريد منَّا سبحانه التفكر والتأمل والنظر، ولكن ليس كل الناس يعطون ذلك، فهناك تفاوت في الأرزاق، ومن الرزق العقل والفهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥]. [٣]

ومثال ذلك: القصة التي معنا، فابن سمعون تفكر وتأمل، وكان له حال

(١) القائل: ابن عجيبة، صاحب البحر المديد في تفسير القرآن المجيد.
(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٤/ ٣٢٥/ ٣٢٦).
(٣) إن كل إنسان ينظر ويتأمل في القرآن، كما ينظر في الحدث الواحد وآيات الله المبثوثة في الكون. علىٰ حسب حاله مع الله.

مع الله، فعلَّمه الله ما خفي علىٰ تلاميذه الجالسين معه.

وأيضًا: قصة موسىٰ والخضر(١)، فالخضر حكم بما علم من خفاء الحال.

الإشارة الرابعة: التنبيه إلىٰ أن القصص القرآني وضح لنا أمورًا عجيبة، ومن هذه الأمور: أن الأقوام المنكرين للحق لهم أمور ظاهرة بموازينهم الفاسدة، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم:٧]، فيرسل الله الأنبياء والرسل، فيظهرون بأقوالهم لأقوامهم ما خفي عليهم(٢)، ومع ذلك الحجب كثيفة علىٰ القلوب، ولا يستجيب إلا من فتح قلبه ليتعلم من خلال الأنبياء المعصومين.

وهذه بعض النماذج علىٰ حوار الأنبياء مع أقوامهم، ولنتأمل ظاهريتهم

---

(١) مع التنبيه علىٰ أن موسىٰ عليه السلام أفضل من الخضر، فهو كليم الله، وهو من أولىٰ العزم من الرسل، الذين خصهم ربنا بالذكر في موضعين: فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣]. وكان الرسول ﷺ يذكره ويقص مواقفه. بل ويشيد النبي ﷺ بصبره وقوته ومثال ذلك: عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَمَّا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قِسْمَةَ حُنَيْنٍ، قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: مَا أَرَادَ بِهَا وَجْهَ اللهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ: «**رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**». صحيح البخاري (٤٣٣٥).

(٢) يقول صاحب الموازين: وهذه قاعدة لتفسير القرآن كله.

وسطحيتهم الفكرية في رد الحق الذي جاء به المرسلون، وكيف كان الأنبياء يتكلمون بوحي من الله وفهم وعمق لمعاني الأمور عليهم السلام.

* قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود: ٦١ - ٦٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا

يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

✍ **ثم قالت كلاب الصيد في رمزية ابن سمعون:**

فإنهم لمَّا رأَوْنا أهلًا للخدمة، حبسونا عليها، وقاموا لنا بالكفاية.

✍ **وهنا سنقف مع كل فقرة:**

* **أولًا: قولهم: فإنهم لمَّا رأَوْنا.**

هنا يتكلم كلاب الصيد مع كلاب الشوارع فيقولون لهم: أنتم يا كلاب الحي لم تروا ما رآه الأمراء فينا، فنظرتهم غير نظرتكم، ورؤيتهم غير رؤيتكم، يا كلاب السكك، يا من هم كالأنعام بل أضل قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

✍ **وهنا لنا إشارات:**

* **الإشارة الأولىٰ**: نظرة الكفار للمسلمين دائما نظرة سخرية وازدراء ولقد وضح لنا القرآن ذلك فقال تعالىٰ حكاية عن نبي الله نوح: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [هود: ٣١].

* **الإشارة الثانية**: الذين تزدريهم أعين الجهلة لهم مكانة وقدر عند الله تعالىٰ، ولذلك اصطفاهم لعبادته، والمشكلة في من خرج من هذه النظرة، لأنه يكون هو الخاسر حقًّا لأنه ليس أهلًا لعبادة الله تعالىٰ.

* **الإشارة الثالثة**: كلاب الحي (الرويبضة) يعرف بعضهم بعضًا، ويتناصرون فيما بينهم، ويكرهون أهل الحق، بل ولا يتحملون رؤية أهل الحق كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم: ٥١]، أَي ليُصِيبُونك بأَعينهم فيزِيلونك عَنْ مَقَامِكَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَكَ.(١) وإذا مرَّ عليهم، أو رأوا كلب صيد (صاحب علم وفضل) نبحوا عليه واستهزؤوا به، وهذا ديدن لهم، ولقد ذكر لنا القرآن سخرية أهل الباطل من أهل الحق فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المطففين:

(١) لسان العرب (١٠/ ١٤٥).

٢٩ - ٣٣].

* ثانيًا: قولهم: أهلًا للخدمة.

فنقول: إن خدمة الشريف شرف، فكيف بخدمة الله تعالىٰ، وكيف بالانتساب إليه سبحانه وتعالىٰ إنه الشرف الذي لا يدانيه شرف، ولذلك نلحظ تشريف الله للنبي ﷺ، بإضافة عبوديته له سبحانه وتعالىٰ، ولقد وصفه الله في أكثر من موضع بهذه الصفة فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وفي هذا دلالة علىٰ أن مقام العبودية لله هو أسمىٰ مقام يدعىٰ إليه بشر ويدعىٰ به كذلك، ولهذا نلحظ أن الله وصف أنبياءه بهذا الوصف فقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر: ٩]، كما أن عيسىٰ وصف نفسه بالعبودية لله فقال كما حكىٰ القرآن: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، وقال الله في حقه أيضًا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩] ونسأل الله أن نكون أهلا لخدمة دينه ولعبادته سبحانه.

* **ثالثًا: قولهم: حبسونا عليها.**

أي: ألزمونا بها، وكما سبق منذ قليل أن خدمة الشريف شرف، فكذلك نقول: إن الحبس علىٰ الخدمة إن كانت من دنئ فهي دنيئة، وإن كانت من كبير فهي عظيمة، وشريفة.

✍ **وهنا لنا عدَّة إشارات:**

* **الإشارة الأولىٰ:** إن قضية الإلزام بشيء يعطينا ارتباطًا، وهذا الارتباط هو ارتباط الأدنىٰ بالأعلىٰ، فإذا كان الأعلىٰ وهو الله اختار الأدنىٰ وهو العبد، فقربه منه، فسارع الأدنىٰ واقترب، نستطيع أن نستنتج علاقة هذه العلاقة هي: علاقة، أو قانون لله مع خلقه وهو قانون الاصطفاء والاختيار، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

الله تبارك وتعالىٰ خلق الخلق، وجعل لكل منهم كمالًا يختص به هو غاية شرفه، فإذا عدم كماله انتقل إلىٰ الرتبة التي دونه، فإن عدم ذلك انتقل إلىٰ ما دونه وهكذا.

حتىٰ إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك والحطب الذي لا يصلح إلا

للوقود.

كالفرس إذا كمل أعد لمركب الملوك، وأكرم إكرام مثله.

فإن نقص قليلًا أعد لمن دون الملك، فإن نزل أعد لآحاد الأجناد، فإن تقاصر استعمل استعمال الحمار إما حول المدار، وإما لنقل الزبل، فإذا عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والإعدام، وهكذا الآدمي: خلقه الله ﷻ ضعيفا جهولًا.

فإذا كمل وبلغ كماله ذروته صار صالحًا لاصطفاء الله له، فاتخذه رسولًا ونبيًّا فـ ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فإن كان جوهره قاصرًا عن هذه الدرجة صالحًا لخلافة النبوة رشحه لذلك وبلغه إياه، فإن كان قاصرًا عن ذلك قابلًا لدرجة الولاية رشح لها، وإن كان ممن يصلح للعبادة والعمل دون المعرفة والعلم جعل من أهله، حتىٰ ينتهي إلىٰ درجة عموم المؤمنين.

فإن نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير أصلًا استعمل حطبًا ووقودًا للنار والعياذ بالله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ [فاطر: ٣٦].

* **الإشارة الثانية**: من الحبس والالزام (وضع المنهج):

سبق معنا أن الحبس بمعنىٰ الإلزام، وهنا نقول: من الحبس وضع المنهج لأن الأعلىٰ هو الذي يضع المنهج للأدنىٰ، وهنا رمزية خطيرة

يستنتجها صاحب الموازين، وهي أن الله هو واضع المنهج لخلقه، والتزم الصالحون واستقاموا علىٰ منهج الله تعالىٰ **وهنا لابد من التنبيه علىٰ عدّة أمور:**

١- الله سبحانه وتعالىٰ حينما خلقنا رسم لنا منهجًا: قال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

٢- أهم شيءٍ بعد خلق الكون هو المَنهج الذي أنزله الله علىٰ سيدنا محمد ﷺ يقول الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وهنا يواجهنا سؤال عن الترتيب في نظم هذه الآيات الأربع التي تشكل مطلع سورة الرحمن، أيعقل أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يخلق؟ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، **والجواب كالآتي:**

إن هذا الترتيب ترتيبٌ رُتَبِي، وليس ترتيبًا زمنيًّا، أي لا معنىٰ لوجود الإنسان من دون منهجٍ يسير عليه، ولتقريب الصورة نقول: لو أنَّ إنسانًا اشترىٰ حاسوبًا من النوع المُعَقَّد جدًا، ولم ترسل الشركة المصنعة تعليمات التشغيل!

هنا سيقف الإنسان حائرًا أمام الحاسوب، إن استعمله من دون تعليمات عطَّبه، وإن خاف عليه ولم يستعمله جَمَّدَ ثمنه! إذن ستكون التعليمات في

أهمية الجهاز نفسه، وهذا مثل ضربته لأقرِّب الصورة المرادة وهي: أن الإنسان أعقد آلة في الكون، لأنه هو المخلوق الأول، ولذلك لا يمكن يترك بدون منهج يمشي عليه ويلتزم به.

٣- ما دمت علىٰ المنهج الإلهي فلا تخف ولا تحزن لأنك إذا اتبعت رضوان الله سبحانه وتعالىٰ يهديك بمنهجه إلىٰ سبلِ السلام، سلام في بيتك، سلام في صحتك، سلام في أولادك، سلام في تجارتك، سلام في عملك، سلام في ماضيك، سلام في حاضرك، سلام في مستقبلك، سلام في خريف عمرك قال تعالىٰ: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٦].

وخلاصة الكلام:

أن لله في الأرض منهجًا، ومن كان ضمن هذا المنهج فهو في سلام، في حياته الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]، ويوم تقوم الساعة، ما دام في طاعة الله فهو في ظل الله وذمته، فإذا خرج عن طاعة الله خرج من حيّز ظله، وهنا تأتىٰ المتاعب والمصاعب قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤]، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ - وَفِي حَدِيثِ

أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ - قَالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ**».(١)

وبناء علىٰ هذا الحديث ينقسم الناس إلىٰ قسمين واحد آمن واستقام، وآخر كفر وفجر وانحرف، وتوضيحهما في هذا الحديث: عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَىٰ اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَىٰ اللهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ**»، **قَالَ اللهُ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].(٢)

وبعد هذه الإشارات نستطيع أن نفهم الرمزية المرادة فكلاب الصيد(أهل العلم والفضل)، يقولون: نحن حبسنا ربنا علىٰ منهجه وهو الإسلام ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ﴾ [المائدة: ٣] فسعدنا به في الدنيا، ونطلب من الله السعادة في الآخرة، أما أنتم يا كلاب السكك (الرويبضة) رفضتم منهج الله، وتبحثون عن ما وضعه الناس في المزابل والطرقات (٣) جعلتم

---

(١) صحيح مسلم: (٣٨).

(٢) سنن الترمذي: (٣٢٧٠)، صحيح الجامع: (٢٩٦٢).

(٣) **قلت: (محمد)**: ومن هنا ظهرت الْبِدَع، وهي مَظِنَّةُ إِلْقَاءِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ: لأَنَّهَا تَقْتَضِي التَّفَرُّقَ شِيَعًا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٢]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ⇦=

منها قوانين تقابل قوانين الله سبحانه فأخذتم بالشيوعية تارة، وبالرأسمالية أخرىٰ وغير ذلك من المصطلحات.

*** رابعًا: قولهم: وقاموا لنا بالكفاية.**

ولبيان هذا الأمر أقول مستعينًا بالله: إن الملك سبحانه وتعالىٰ لمَّا حبسنا علىٰ منهجه وألزمنا به، لم يكن هذا الحبس من باب الهيمنة والتسلط فقط، بل أعطانا ما نحتاجه لأنه خالقنا ويعلم مكنونات النفوس قال تعالىٰ حكاية عن عيسىٰ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣- ١٤]، ولعلمه المطلق أعطانا وكفانا كل احتياج وكيف لا وهو القائل سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ ﴾ [الزمر: ٣٦]، وفي قراءة ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عِبَادَه﴾(١) والجواب بكل قلب راسخ بلىٰ يا ربنا سبحانك أنت الكافي.

= الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ.

(١) قال الشاطبي:

أمن خفّ حرميّ فشا مدّ سالما ... مع الكسر حقّ عبده اجمع شمردلا

والمعنىٰ: قرأ حمزة والكسائي: أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ بكسر العين وفتح الباء وألف بعدها علىٰ الجمع، وقرأ الباقون بفتح العين وسكون الباء وحذف الألف علىٰ الإفراد.

✍ وهنا لنا إشارتان:

❍ **الإشارة الأولى: كفاية الله لنا بالقرآن:**

لقد كفانا الله بالقرآن كفاية تامة عن كل القوانين والمناهج الأرضية، بل هو فوق حد الكفاية، لأن فيه سعادة الدارين، ولذلك دأب رسول الله ﷺ علىٰ ترسيخ الارتباط بالقرآن، والمتتبع لأحاديث الرسول ﷺ يجدها شارحة للقرآن مبينة لما أُجمل فيه، مؤكدة لمعانيه، وهذا ما دفع الشافعي رحمه الله لأن يقول بأن السُّنة هي: فهم النبي للقرآن، أو نضح فهمه للقرآن.(١)

أولًا: يكفينا القرآن؟!

يقول لنا ربنا: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]. فبماذا نجيبه؟! نعم يا رب يكفينا، يكفينا «سمعنا وأطعنا».

ولنتأمل هذا الحديث، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ جَعْدَةَ، قَالَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَتِفٍ فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ: «**كَفَىٰ بِقَوْمٍ ضَلَالًا، أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ، إِلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيٌّ غَيْرُ نَبِيِّهِمْ، أَوْ كِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِهِمْ**، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]» الْآيَةَ.(٢)

(١) كيف نتعامل مع القرآن: (٤٥).
(٢) سنن الدارمي: (٤٩٥).

❍ الإشارة الثانية: كفاية الله لنا بالرزق:

ولخطر هذه القضية مستعينًا بالله سبحانه وتعالىٰ أقول: إن أعظم ضلال الناس في كل العصور بسبب ضعف الثقة بالله ﷻ خاصة في ثلاث قضايا وهي: الرزق والأجل ومستقبل الأولاد.

والعجيب أن الله تكفل بالرزق للمؤمن والكافر والبر والفاجر، وإذا تأملنا القرآن سنجد أن الخليل إبراهيم طلب من الله أن يقصر الرزق علىٰ المؤمنين فقط فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة: ١٢٦] فإذا بالله يقول له: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦]. فبين ربنا أن الرزق للناس جميعًا علىٰ جميع أحوالهم وعلىٰ اختلاف معتقداتهم.

والخوف علىٰ الرزق يمكن أن يسوق الكثيرين إلىٰ الضلال، وربما إلىٰ الكفر والنفاق وهذا كله بسبب ضعف الثقة في الله ﷻ.

❁ حديث القرآن عن الرزق:

يبيّن لنا ربنا في القرآن الكريم أنه هو الخالق الرازق فيقرن في الحديث بين قضية الخلق وقضية الرزق وهذا من أجل أن يعلم الناس أن الخالق هو الرازق ولن ينسىٰ أحدًا سبحانه.

❍ القرآن يربط بين قضية الخلق وقضية الرزق:

* يقول ربنا عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر: ٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

○ الرزاق هو الله وحده:

لا تحزنْ منْ تعسُّر الرزقِ فإنَّ الرزَّاق هو الواحدُ الأحدُ، فعنده رِزْقُ العبادِ، وقدْ تكفَّلَ بذلك، فقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

* وقال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]. وبهذه الطريقة يؤكد القرآن علىٰ هذا المعنىٰ وهو أن الله هو الرزاق ولا رزاق إلا الله.

* فإذا كان اللهُ هو الرزاقُ فلِم يتملَّقُ البشرُ، ولِم تُهانُ النفسُ في سبيلِ الرزقِ لأجل البشرِ؟! قال سبحانه: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

* وقال جلَّ اسمُه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر: ٢]. وبهذا نجد أن القرآن حسم القضية في موضوع الرزق وبين أنه لا رازق إلا الله.

ثم يقول ابن سمعون في رمزيته وإشارته: قالت الكلاب الأهلية: لو كان كما قلتُم لكان أحدُكم إذا كَبِرَ عرفوا له حقَّ الخدمة، ونرىٰ أحدَكم إذا كَبِرَ طردوه، فصار معنا.

وهنا شبهة يلقيها كلاب الشوارع، فهم يقولون لكلاب الصيد: لوكان كما قلتُم أنهم رأوكم أهلًا للخدمة، فقاموا لكم بالكفاية، فأين الكفاية، وأنتم إذا طرد الواحد منكم رجع لنا نحن في مرحلة الكبر.

وكأنَّ كلاب السكك يقولون لكلاب الصيد: إنكم طردتم لما أصابكم الكبر فصرتم مثلنا ولم يشفع لكم ما فعلتم من خدمة [١] فلم رضيتم

(١) وهذا الكلام يؤكد أن كلاب السكك تلاميذ لإبليس لأنهم يقلبون الأمور وينكرون الحقائق، وما أشبه هذا الكلام بما دار بين ابن سمعون وإبليس لما قال ابن سمعون له: يا جاهل، تَدرِي أَيَّ عذابٍ أَنْتَ مُعَذَّب؟ فقال له إبليس: نعم، فقال ابن سمعون له: بأي عذاب أنت معذب؟ فقال إبليس: بعذاب المخالفة، قال ابن سمعون له: وهذه أيضًا مما تدل علىٰ زيادة جهلك. أَمَا مَا خَالَفَهُ غَيْرُك؟ أَمَا خَالَفَهُ آدم فتاب عليه واجتباه وهداه؟ فقال له إبليس - فبأي عذاب أنا معذب؟ فقال ابن سمعون له: أنت معذب بعذاب المقت. قال ابن سمعون: فصرخ صرخة فاستحال قِرْدًا.

بالسلاسل والقيود مع أنكم في النهاية تتساوون بنا؟!

وهكذا يريد تلاميذ إبليس أن يلقوا شبهة، ولكنها لن تمر علىٰ أهل الفضل والعلم، وقد بين كلاب الصيد الحقيقة، ووضحوا أن الطرد ليس بسبب الكبر، ولكن بسبب آخر.

✍ **فما هو السبب؟**

✍ **لقد وضح ابن سمعون السبب الحقيقي في رمزيته فقال: قالت كلاب الصيد: ما تركونا لِما ذكرتُم، ولكن لمَّا قَصَّرنا في الخدمة طردونا، وكلُّ مقصرٍ فيما يجب عليه مطرود.**

وهنا تتضح الحقيقة وهي: أن الطرد بسبب التقصير في خدمة الملك، لأن كلَّ مقصرٍ فيما يجب عليه مطرود.

والآن لنا عدَّة إشارات:

○ الإشارة الأولى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا:

إن الله لما كلَّف الناس وحبسهم علىٰ وظائف مطلوبة، لم يطلب منهم إلا ما يستطيعونه، وهذا واضح جدًا في كتاب الله قال تعالىٰ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦٢]، ومن هنا يأتي الطرد لمن كلفه الله بشيء يستطيعه ولم يقم به.

○ الإشارة الثانية: من عجز عن الخدمة لعذر لا يطرد:

إن الله لا يكلف إلا بما في الوسع، ولذلك وضح لنا ربنا أن هناك من لا يستطيع أن يقوم بالمطلوب لعدم الاستطاعة بسبب كبر، أو مرض، أو فقد المال، أو..... وهذا لا يطرد، بل يُعْذَر، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة قال تعالىٰ: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٤- ١٨٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [النساء: ٩٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة: ٨٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [المجادلة: ٣ - ٤].

○ الإشارة الثالثة: من الذي يستحق الطرد؟

إن السؤال الآن: من هو الذي يستحق الطرد؟

والجواب علىٰ ذلك كالآتي:

إنَّ من كان قادرًا مستطيعًا، ولم يفعل المطلوب منه، وقصَّر في الخدمة المحبوس عليها، استحق الطرد بسبب تقصيره، وليس كما قال الرويبضة: أن الطرد بسبب الكبر في السن.

وهنا نقول: إن المخالفة مع الاستطاعة، تكون سببا في إنزال الرتبة أو إحلال العقوبة، قال ابن الجوزي: كَانَتْ زُلَيْخَا تَلْبَسُ جُبَّةَ صُوفٍ وَتَشُدُّ

وَسَطَهَا بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ وَتَقِفُ عَلَىٰ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَتُنَادِيهِ فَلا يَسْمَعُ، فَنَادَتْهُ[١] يَوْمًا: أَيُّهَا الْعَزِيزُ سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْعَبِيدَ بِالطَّاعَةِ مُلُوكًا وَجَعَلَ الْمُلُوكَ بِالْمَعْصِيَةِ عَبِيدًا! فَسَمِعَهَا فَبَكَىٰ. [٢]

ولقد فهم الصحابي الجليل أبو الدرداء هذا الأمر، وهو أن المخالفة مع الاستطاعة، سببٌ في إنزال الرتبة، وإحلال العقوبة فبكىٰ في موضع جعل الناس يتعجبون ويسألون، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ مَدَائِنُ قُبْرُسَ، وَقَعَ النَّاسُ يَقْتَسِمُونَ السَّبْيَ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ وَيَبْكِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَتَنَحَّىٰ أَبُو الدَّرْدَاءِ، ثُمَّ احْتَبَىٰ بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ، فَجَعَلَ يَبْكِي، فَأَتَاهُ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ؟ أَتَبْكِي فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟ وَأَذَلَّ فِيهِ الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ، فَضَرَبَ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا جُبَيْرُ بْنَ نُفَيْرٍ، مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَىٰ اللهِ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ النَّاسِ، لَهُمُ الْمُلْكُ حَتَّىٰ تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ، فَصَارُوا إِلَىٰ مَا تَرَىٰ، وَإِنَّهُ إِذَا سُلِّطَ السِّبَاءُ عَلَىٰ قَوْمٍ فَقَدْ خَرَجُوا مِنْ عَيْنِ اللهِ، لَيْسَ لِلَّهِ بِهِمْ حَاجَةٌ». [٣]

ولنتأمل قول أبي الدرداء: «مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَىٰ اللهِ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ النَّاسِ، لَهُمُ الْمُلْكُ حَتَّىٰ تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ، فَصَارُوا إِلَىٰ مَا تَرَىٰ». فهو هنا يؤكد أن المخالفة مع الاستطاعة سبب في إنزال الرتبة وإحلال العقوبة.

---

(١) أي: نادت علىٰ يوسف عليه السلام.

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ١٨٥).

(٣) سنن سعيد بن منصور: (٢/ ٢٩٠)، حلية الأولياء: (١/ ٢١٦).

وهذا هو الذي حدث مع إبليس لعنه الله كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٨]، فالله أمر إبليس بالسجود، وكان إبليس قادرًا مستطيعًا، ومع ذلك عصىٰ فاستحق الطرد.

- ولكن يجب أن نتنبه إلىٰ أنَّ إحلال العقوبة ليس شرطًا أن يكون مقتًا، بل قد يكون تربيةً، للفت الانتباه من أجل العودة والرجوع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، والأمثلة كثيرة ومنها:

١ - غزوة أحد:

لقد خالف الرماة أوامر الرسول ﷺ، وكانوا قادرين علىٰ فعل المطلوب منهم، ولذلك عاقبهم الله وكانت الهزيمة، كما وضحت سورة آل عمران في كثير من آياتها، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

٢ - غزوة حنين:

لقد وقعت المخالفة فجاءت العقوبة كما حكىٰ القرآن: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

۞ تنبيه:

إن الأمة إذا خالفت أنزل الله عقابه لترجع إليه سبحانه وتعالىٰ والدليل عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**».(١)

- وبعد هذه الكلمات الرائعة من ابن سمعون، يختم صاحب الموازين معلقًا فيقول:

قلت: لا يجيد الاعتبار إلا أولو الأبصار.

وخير مثال مصدِّق لكلام صاحب الموازين: المثال الذي معنا، وهو ابن سمعون رحمه الله تعالىٰ، فلقد استخرج لنا دررًا من حوار رمزي، واعتبر به لأنه كما قيل عنه، وكما نحسبه ولا نزكيه علىٰ الله من أهل البصيرة.

○ كيفية التفكر والاعتبار:

✍ **قال الغزاليّ** رحمه الله: اعلم أنّ معنىٰ الفكر هو إحضار معرفتين في القلب، ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله أنّ من مال إلىٰ العاجلة، وآثر الحياة الدّنيا، وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولىٰ بالإيثار من العاجلة فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أنّ الآخرة أولىٰ بالإيثار من الدّنيا، فيقلّده، ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلىٰ إيثار الآخرة اعتمادًا علىٰ مجرّد قوله، وهذا يسمّىٰ تقليدا ولا يسمّىٰ معرفة.

(١) سنن أبي داود (٣٤٦٢)، وصححه الألباني.

والطّريق الثّاني: أن يعرف أنّ الأبقىٰ أولىٰ بالإيثار، ثمّ يعرف أنّ الآخرة أبقىٰ. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة، وهو أنّ الآخرة أولىٰ بالإيثار، ولا يمكن تحقّق المعرفة بأنّ الآخرة أولىٰ بالإيثار إلّا بالمعرفتين السّابقتين.

فإحضار المعرفتين السّابقتين في القلب للتّوصّل به إلىٰ المعرفة الثّالثة يسمّىٰ تفكّرًا واعتبارًا وتذكّرًا ونظرًا وتأمّلًا وتدبّرًا. أمّا التّدبّر والتأمّل والتّفكّر: فعبارات مترادفة علىٰ معنىٰ واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأمّا اسم التذكّر والاعتبار والنّظر؛ فهي مختلفة المعاني، وإن كان أصل المسمّىٰ واحدا؛ كما أنّ اسم الصّارم، والمهنّد.[١]، والسّيف؛ يتوارد علىٰ شيء واحد، ولكن باعتبارات مختلفة. فالصّارم يدلّ علىٰ السّيف من حيث هو قاطع، والمهنّد يدلّ عليه من حيث نسبته إلىٰ موضعه، والسّيف يدلّ دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزّوائد.[٢]

✍ **ثم قال صاحب الموازين: ولا يستطيع كشف الأحوال والمواقف إلا من كان بالله عارف.**

فأقول: ليس كل إنسان مؤهلًا أن يقرأ المواقف ويعتبر منها، كما أن الأمر ليس في كثرة القراءة في الكتب، بل يحتاج الإنسان مع القراءة والتعلم، إلىٰ معرفة بالله ليعرفه الله ويعلمه.

وهنا لنا إشارات:

---

(١) المهند: السيف المطبوع من حديد الهند.
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥- ٤٢٦).

الإشارة الأولى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩].

قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩]، قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ ﴾ فيه أمر بالمعرفة، ومن هنا نعلم أن من أراد التوحيد الحقيقي فلا سبيل له إلا بالمعرفة الصحيحة، لأن المعرفة الصحيحة هي الموصلة لحقيقة التوحيد.

فالعارف بالله حقًا هو الذي يعرف كيف يوظف حظوظ قلبه ونفسه لمعرفة الله سبحانه وتعالىٰ، ويعرف كيف يتعامل بحظوظ القلب والنفس مع أسمائه الحسنىٰ.

- ثم يأتي قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] وفيه بيان لحقيقة النفس، وحقيقتها أنها مقصرة، ولذلك وجب الاستغفار، لأن من عرف ربّه حقًا، وعرف نفسه، عرف أنه عبد وأن كل ما أعطاه الله من هبته سبحانه، وهذا هو العلم الحقيقي الذي أمر الله به فقال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] فالآية فيها بيان لحقيقة معرفة الله، وفيها بيان لحقيقة النفس ولذلك جاء الاستغفار بعد المعرفة.

وهنا من الجيد أن نذكر ما قاله ابن القيم ليتضح المراد قال ﷺ: لَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرًا لَمْ أُشَاهِدْهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَكَانَ يَقُولُ كَثِيرًا: مَا لِي شَيْءٌ، وَلَا مِنِّي شَيْءٌ، وَلَا فِيَّ شَيْءٌ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

أَنَا الْمُكَدِّي وَابْنُ الْمُكَدِّي ... وَهَكَذَا كَانَ أَبِي وَجَدِّي

وَكَانَ إِذَا أُثْنِي عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ يَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي إِلَىٰ الْآنِ أُجَدِّدُ إِسْلَامِي كُلَّ وَقْتٍ، وَمَا أَسْلَمْتُ بَعْدُ إِسْلَامًا جَيِّدًا.

وَبَعَثَ إِلَيَّ فِي آخِرِ عُمُرِهِ قَاعِدَةً فِي التَّفْسِيرِ بِخَطِّهِ، وَعَلَىٰ ظَهْرِهَا أَبْيَاتٌ بِخَطِّهِ مِنْ نَظْمِهِ:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَىٰ رَبِّ الْبَرِيَّاتِ ... أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي
لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ
وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًىٰ يُدَبِّرُنِي ... وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي
إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا ... إِلَىٰ الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ
وَلَا ظُهَيْرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ ... كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ
وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي
وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي
فَمَنْ بَغَىٰ مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ ... فَهُوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي

وَأَمَّا تَجْرِيدُ رُؤْيَةِ الْفَضْلِ فَهُوَ أَنْ لَا يَرَىٰ الْفَضْلَ وَالْإِحْسَانَ إِلَّا مِنَ اللهِ، فَهُوَ الْمَانُّ بِهِ بِلَا سَبَبٍ مِنْكَ، وَلَا شَفِيعٍ لَكَ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِالشَّفَاعَةِ، وَلَا وَسِيلَةٍ سَبَقَتْ مِنْكَ تَوَسَّلْتَ بِهَا إِلَىٰ إِحْسَانِهِ.

وَالتَّجْرِيدُ هُوَ تَخْلِيصُ شُهُودِ الْفَضْلِ لِوَلِيِّهِ، حَتَّىٰ لَا يَنْسُبَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَإِلَّا

فَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُجَرَّدٌ عَنِ النِّسْبَةِ إِلَىٰ سِوَاهُ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي تَجْرِيدِهِ فِي الشُّهُودِ، لِيُطَابِقَ الشُّهُودُ الْحَقَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. (١)

ولقد ذكر ابن القيم هذا الكلام في آخر كتابه مدارج السالكين، ولعل الحكمة التي أرادها ابن القيم، أن مدارج السالكين التي سبق وذكرها ﷺ، توصل في النهاية إلىٰ معرفة الله ومعرفة النفس، والمثال الأقرب الذي استشهد به شيخه ابن تيمية فهو قد أدرك هذه الحقيقة، والأبيات التي قالها تدور حول معرفة الله بالغني الذاتي وأنه لا إله إلا الله، كما أنها توضح معرفة النفس وأنَّ حقيقة النفس هي التقصير والافتقار ولذلك تنتهي إلىٰ الاستغفار، وهذا فهم دقيق وتوضيح لقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩].

❍ الإشارة الثانية: وقفة إيمانية مع حقيقة المعرفة بالله سبحانه وتعالى:

إن حقيقة العبودية هي الذل والانكسار لربنا، وارتباط حياتنا به، وافتقارنا التام إليه، مع حبه وخشيته ودوام الإنابة والاستعانة به.

ولو دققنا النظر في هذه المعاني لوجدنا أنها عبارة عن معاملات ينبغي أن يتعامل بها المرء مع الله ﷻ، بمعنىٰ أنه يجب علىٰ العبد أن يعامل ربه بحب واشتياق، وأن يعامله بصدق وإخلاص، وأن يتعامل معه وهو يرهبه ويخشاه، وأن يعامله وهو يطمع فيما عنده، وأن يتعامل معه بتذلل وانكسار، وأن يتعامل معه كذلك وهو يستشعر افتقاره، وعظيم احتياجه إليه.. هذه

(١) مدارج السالكين: (١/ ٥٢٠/ ٥٢١).

المعاملات لا يمكن أن تتم بصورة تلقائية إلا إذا انطلقت المشاعر، فعلىٰ سبيل المثال: لا يمكن لشخص أن يحب شخصًا آخر لمجرد أنه أُمر بذلك، فلغة القلوب لا يمكن تكلفها.

- فالقلوب بصفة عامة تحب من يحسن إليها ويكرمها، ويحرص عليها، ويرأف بها.

- والقلوب تخاف ممن تتأكد أنه يملك عقابها وحرمانها مما تحب.

- والقلوب تفتقر وتتجه إلىٰ من يملك احتياجاتها وما تريد.

- والقلوب تطمئن وتسكن لمن تشعر بالحماية والأمن في جواره.

- والقلوب تستعين بمن تراه قادرًا علىٰ أن يفعل ما تريد... وهكذا.

✍ والسؤال الآن: لماذا لا تتجه القلوب إلىٰ الله؟

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا تتجه القلوب إلىٰ الله وتتعامل معه بما هو أهله مع أنه سبحانه وتعالىٰ يحسن إليها ويكرمها، ويملك احتياجاتها كلها، وهو القادر علىٰ فعل أي شيء، ويستطيع عقابها وحرمانها مما تحبه؟..

لماذا تتجه القلوب إلىٰ بعض المخلوقين بالتعظيم والتوقير ولا تتجه إلىٰ الخالق العظيم ذي الجلال والإكرام؟

السبب وراء ذلك هو الجهل به سبحانه، وبمقامه الجليل، وبقدره العظيم، والجهل كذلك بالطريقة التي يتعامل بها معنا من ود، وحب، وشفقة.. تأمل معي هذه الآية: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]، فعدم معرفة هؤلاء بالله جعلتهم

يرهبون البشر أكثر من رهبتهم لله.

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنِي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا فَرَدَّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا**».(١)

❍ المعاملة على قدر المعرفة:

تخيل أنك ذهبت إلىٰ السوق ودخلت حانوتًا من الحوانيت وقابلت فيه رجلًا يتسوق مثلما تتسوق، ودار بينكما حديث ومن خلاله عرفت أن هذا الرجل يعمل وزيرًا في حكومة بلدك، هل ستستمر في الحديث معه بنفس الطريقة التي بدأت بها أم ستتغير ليكسوها الاحترام والحذر؟!.. بلا شك أن معرفتك به ستدفعك إلىٰ تغيير معاملتك له..

فطريقة المعاملة تحددها درجة المعرفة، وكلما ازدادت المعرفة تغيرت المعاملة، وهذا ما حدث مع سيدنا موسىٰ - عليه السلام - عندما رأىٰ آثار جلال الله علىٰ الجبل الذي اندك فخر - عليه السلام - صعقًا، فلما أفاق ماذا قال لربه؟!

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن كان هذا قوله عند رؤية أثر جلال الله علىٰ الجبل، فكيف لو رأي الله عز وجل؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي**

(١) المعجم الأوسط (٧/ ٢٢٠)، وانظر: صحيح الجامع: (١٧١٤).

الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ» قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» قَالَ: «فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ» قَالَ: «فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟» قَالَ: «فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟» قَالَ: «فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا».(١)

❍ أهمية المعرفة:

إذن فالسبب الرئيس لعدم معاملة الله ﷻ بما هو أهله: عدم معرفته معرفة صحيحة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، وهذا ما أنكره نوح عليه السلام علىٰ قومه عندما قال لهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، ثم بدأ في تعريفهم بربهم لعل قلوبهم تتجه إليه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم

(١) صحيح البخاري: (٦٤٠٨). وتتمته: قَالَ: «يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟» قَالَ: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً» قَالَ: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ» قَالَ: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٤ - ٢٠].

معنىٰ ذلك أن نقطة البداية في طريق العبودية والسير إلىٰ الله هي معرفته سبحانه، وكلما قويت تلك المعرفة، ازدادت العبودية أكثر وأكثر، وهذا ما يؤكده قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فهؤلاء الصالحون الذين ذكرتهم الآيات، عندما تفكروا في خلق الله، ازدادت معرفتهم به ومن ثَم انعكس ذلك علىٰ تعاملهم معه بمزيد من التنزيه والخشية: ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

يقول ابن رجب: وكلما قويت معرفة العبد لله قويت محبته له، ومحبته لطاعته، وحصلت له لذة العبادات من الذكر وغيره علىٰ قدر ذلك. (١)

❍ الإشارة الثالثة: قراءة المواقف محتاجة لقلب وعقل:

قراءة المواقف محتاجة لقلب وعقل، والله لا يعطي هذه القراءة لكل أحد ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

(١) استنشاق نسيم الأنس للحافظ ابن رجب، ص (٥٠).

✍ **يقول ابن القيم معلقًا علىٰ هذه الآية:** إِذا أردْت الِانْتِفَاع بِالْقُرْآنِ فاجمع قَلْبك عِنْد تِلَاوَته وسماعه، وأَلْقِ سَمعك واحضر حُضُور من يخاطبه بِهِ من تكلّم بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ فإنَّه خطاب منه لك علىٰ لِسَان رَسُوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

- وَذَلِكَ أَن تَمام التَّأْثِير لمّا كَانَ مَوْقُوفا علىٰ: مُؤثر مُقْتَض، وَمحل قَابل، وَشرط لحُصُول الْأَثر، وَانْتِفَاء الْمَانِع الَّذِي يمْنَع مِنْهُ، تضمّنت الْآيَة بَيَان ذَلِك كلّه بأوجز لفظ وأبينه وأدلّه علىٰ المُرَاد.

فَقَوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ [ق: ٣٧] أشار إِلَىٰ مَا تقدّم من أوّل السُّورَة الىٰ هَهُنَا وَهَذَا هُوَ المؤثّر.

وَقَوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧] فَهَذَا هُوَ الْمحل الْقَابِل، وَالْمرَاد بِهِ الْقلب الحيّ الَّذِي يعقل عَن الله كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩- ٧٠] أَي حيّ الْقلب.

وَقَوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ [ق: ٣٧] أَي وجَّه سَمعه وأصغىٰ حاسّة سَمعه إِلَىٰ مَا يُقَال لَهُ وَهَذَا شَرط التأثّر بالْكلَام.

وَقَوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] أَي شَاهد الْقلب حَاضر غير غَائِب.

* **قَالَ ابْن قُتَيْبَة:** اسْتمع كتاب الله، وَهُوَ شَاهد الْقلب والفهم، لَيْسَ بغافل وَلَا ساه، وَهُوَ إِشَارَة إِلَىٰ الْمَانِع من حُصُول التَّأْثِير وَهُوَ سَهْو الْقلب وغيبته عَن تعقّل مَا يُقَال لَهُ وَالنَّظَر فِيهِ، وتأمّله فَإِذا حصل الْمُؤثر وَهُوَ الْقُرْآن،

وَالْمحل الْقَابِل وَهُوَ الْقلب الْحَيّ، وَوجد الشَّرْط وَهُوَ الإصغاء، وانتفىٰ الْمَانِع وَهُوَ اشْتِغَال الْقلب وذهوله عَن معنىٰ الْخطاب وانصرافه عَنهُ إِلَىٰ شَيْء آخر حصل الْأَثر، وَهُوَ الِانْتِفَاع والتذكّر.

- فَإِن قيل: إِذا كَانَ التَّأْثِير إِنَّمَا يتم بِمَجْمُوع هَذِه فَمَا وَجه دُخُول أَدَاة أَو فِي قَوْله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧] والموضع مَوضِع وَاو الْجمع لَا مَوضِع أَو الَّتِي هِيَ لأحد الشَّيْئَيْنِ؟

قيل هَذَا سُؤال جيّد وَالْجَوَاب عَنهُ أَن يُقَال: خرج الْكَلَام بِأَو بِاعْتِبَار حَال الْمُخَاطب الْمَدْعُو، فَإِن من النَّاس من يكون حَيّ الْقلب واعيه تَامّ الْفطْرَة، فَإِذا فكَّر بِقَلْبِه وجال بفكره دلّه قلبه وعقله علىٰ صحّة الْقُرْآن، وَأَنه الْحق وَشهد قلبه بِمَا أخبر بِهِ الْقُرْآن فَكَانَ وُرُود الْقُرْآن علىٰ قلبه نورا علىٰ نور الْفطْرَة، وَهَذَا وصف الَّذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وَقَالَ فِي حقّهم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، فَهَذَا نور الْفطْرَة علىٰ نور الْوَحْي وَهَذَا حَال صَاحب الْقلب الْحَيّ الواعي. (١)

ثم قال صاحب الموازين: ولا يدرك حقائق اللغات إلا من تفضل الله عليه بالهبات.

(١) الفوائد لابن القيم (٣: ٥).

✍ وهنا نقول:

إن اللغات لها حقائق، ولا يدركها إلا من تفضل الله عليه بالهبات، واللغات هنا ليس المراد بها لغات البشر فقط، بل تكون لغة الحيوانات أيضًا، ولكن لا يقرأ ويعرف الحقائق إلا من تفضل الله عليه بالهبات، ولقد أعطىٰ الله ووهب نبيه سليمان معرفة لغة الطير كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦].

ولقد دار حوار بينه عليه السلام وبين نملة قال تعالىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٧ - ١٩].

ودار حوار بينه وبين الهدهد كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل: ٢٠ - ٢٨].

وكذلك رسولنا ﷺ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدِ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - قَالَ بَهْزٌ، وَعَفَّانُ: فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: «**مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟**» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللهُ، إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**». (١)

۞ وهنا تنبيه:

إن الأنبياء لهم منزلة عالية عن بقية البشر، ولذلك نلحظ أن الأنبياء يفهمون الكلام على حقيقته فقال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٩]، لأن سليمان عليه السلام فهم قولها على حقيقته، وكذلك مع الهدهد، وكذلك فهم الرسول ﷺ كلام الجمل وكلام الطائر الصغير وهو الحمرة على حقيقته.

- أما من هم دون الأنبياء فإنهم يحاولون الفهم، ويجتهدون فيلهمهم الله تعالى فهمًا وعلمًا، ولكن ليسوا كدرجة الأنبياء، ولذلك نلحظ ما قاله ابن

(١) مسند أحمد: (١٧٤٥).

سمعون في كلامه: كأنَّ هذه حادث هذه. وهذا من دقة ابن سمعون وحسن أدبه فيقول: كأن.

- وأيضًا ما حدث مع سفينة مولىٰ رسول الله ﷺ، عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ، «أَنَّ سَفِينَةَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْطَأَ الْجَيْشَ بِأَرْضِ الرُّومِ، - أَوْ أُسِرَ - فَانْطَلَقَ هَارِبًا يَلْتَمِسُ الْجَيْشَ، فَإِذَا بِالْأَسَدِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ مِنْ أَمْرِي كَيْتَ وَكَيْتَ، فَأَقْبَلَ الْأَسَدُ لَهُ بَصْبَصَةٌ حَتَّىٰ قَامَ إِلَىٰ جَنْبِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ صَوْتًا أَتَىٰ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَمْشِي إِلَىٰ جَنْبِهِ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ بَلَغَ الْجَيْشَ، ثُمَّ رَجَعَ الْأَسَدُ». (١)

فلقد تكلم مع الأسد وفهم منه الأسد، ولكنه قال: فَأَقْبَلَ الْأَسَدُ لَهُ بَصْبَصَةٌ يعني: يحرك الذنب، وكأنه يرحب به. وهنا رمزية أيضًا.

✍ ثم قال صاحب الموازين: ولا يفهم معاني وأسرار النباح إلا من أسلم وجهه للفتاح.

وهنا لم يقصد صاحب الموازين بقوله: ولا يفهم معاني وأسرار النباح، حصر الفهم للنباح فقط، ولكنه أراد العموم لكل صوت، فالمرء يمكن أن يكون له فهم في كل صوت يسمعه، بل ويتأثر به (٢)، ومثال ذلك ما قاله القائل:

---

(١) جامع معمر بن راشد: (١١/ ٢٨١)، شرح السنة للبغوي: (٣٧٣٢).

(٢) والإنسان بدراسة معينة أو بحث يمكن أن يصل بتوفيق الله إلىٰ أسرار خطيرة، والناظر في هذه الأيام يجد كثيرًا من البرامج تعنىٰ بهذا، وصدق الله حيث قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

لقد هَتَفت فِي جنح ليل حمامة ... علىٰ فنن وَهنا وَإِنِّي لنائم
فَقلت اعتذارًا عِنْد ذَاك وإنني ... لنَفْسي مِمَّا قد رَأَتْهُ للائم
أأزعم أَنِّي هائم ذُو صبَابَة ... لسعدي وَلَا أبْكِي وتبكي الحمائم
كذبت وَبَيت الله لَو كنت عَاشِقًا ... لما سبقتني بالبكاء الحمائم (١)

✍ وفي لفظ آخر:

أنام علىٰ سهوٍ وتبكي الحمايمُ ... وليس لها جُرمٌ ومنّي الجرايمُ
كذبتُ وبيتٍ الله لو كنتَ عاقلًا ... لما سَبَقتني بالبكاء الحمايمُ (٢)

✍ **ثم قال صاحب الموازين: وإن بعض الكلاب يفضل علىٰ كثير ممن لبس الثياب.**

✍ **وهنا لنا إشارتان:**

❍ **الإشارة الأولى: إشارة خاصة بالكلاب.**

فصاحب الموازين يقول: وإن بعض الكلاب يفضل علىٰ كثير ممن لبس الثياب، ونلحظ أن هناك كتابًا يحمل هذا العنوان: فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب، وسننقل منه بعض الأمور ولنتأمل الآتي:

* **قَالَ أبو الدرداء**: أدركت الناس ورقا لا شوك فيه فأصبحوا شوكًا لا ورق فيه، إن عرفتهم نقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك. قالوا: كيف نصنع؟

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي: (٢/ ٩٧).
(٢) تاريخ الإسلام: (٢٦/ ٣١٦).

قال: تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك.(١)

- قيل لبعض الحكماء: أيُّ الناس أحق أن يُتَّقَىٰ قال عدوٌّ قويٌّ وسلطانٌ غشومٌ وصديقٌ مخادعٌ. وأنشد:

عدوٌّ راح في ثوب الصديق ... كشريك في الصَّبوح وفي الغبوقِ
له وجهانِ ظاهرهُ ابن عمٍّ ... وباطنُه بن زانيةٍ عتيقِ
يسرُّكَ مُقبلًا ويسوءُك غبيا ... كذاكَ تكونُ أولادُ الطريق(٢)

✍ **وقال ابن المرزبان**: رُويَ لنا أنَّ رجلًا قال لبعض الحكماء أوصِني قال ازهد في الدنيا ولا تُنازِع فيها أهلها وانصح لله تعالىٰ كنصح الكلب لأهله فإنّهم يُجيعونه ويضربونه ويأبىٰ إلا أن يحوطهم نصحًا. (٣)

✍ **وقال الشاطبي**:

وقد قيل كن كالكلب يقصيه أهله ... وما يأتلي في نصحهم متبذّلا

والمعنىٰ: قد قيل في المثل: كن كالكلب، الذي هو أخس الحيوانات. كن مثله في الوفاء لأهله والثبات عليه، فإن أهله يبعدونه عنهم ويجيعونه ويضربونه ويؤذونه، وهو لا يقصر في نصحهم وخدمتهم باذلا في ذلك قصارىٰ وسعه وغاية جهده.

والمقصود من البيت: الحث علىٰ بذل الجهد في طاعة الله ﷻ وعدم

(١) فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب: (ص: ٢٥)، إحياء علوم الدين (٣/ ١٧٨).
(٢) فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب: (ص: ٣٤).
(٣) فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب: (ص: ٣٥).

التراخي فيها، مهما ابتلي الإنسان في الدنيا فإن الله ﷻ لا يبتلىٰ عبده في هذه الحياة بفقر أو مرض إلّا ليكفر ذنبه، أو يرفع في الآخرة درجته. (١)

وروىٰ عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال رأىٰ رسول الله ﷺ رجلًا قتيلًا فقال: «**ما شأن هذا الرجل قتيلًا**» فقالوا: يا رسول الله وثبَ علىٰ غنمِ أبي زهرة فأخذ شاةً فوثب عليه كلبُ الماشية فقتَلَه فقال ﷺ: «**قتل نفسَه وأضاعَ دينَه وعَصىٰ ربَّه ﷻ وخان أخاه وكان الكلب خيرًا من هذا الغادر**»، ثم قال ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يحفظ أخاهُ المسلمَ في نفسهِ وأهلهِ كحفظ هذا الكلبِ ماشيةَ أربابه**»؟. (٢)

- كان للحارث ابن صعصعة ندمان(٣) لا يفارقهم شديد المحبة لهم فبعث أحدهم بزوجته فراسلها، وكان للحارث كلبٌ ربّاه.

فخرج الحارث في بعض منتزهاته، ومعه ندماؤه، وتخلَّف عنهُ ذلك الرجل فلما بعد الحارث عن منزله جاء نديمه إلىٰ زوجته، فأقام عندها يأكل ويشرب، فلما سكرا واضّطجعا ورأىٰ الكلب أنه قد ثار علىٰ بطنها، وثب الكلب عليهما فقتلهما!

فلما رجع الحارث إلىٰ منزله، ونظر إليهما عرف القصة، ووقف ندماؤه

(١) الوافي في شرح الشاطبية: (ص: ٣٩).
(٢) رواه البرزالي في كتاب سلوك طريق السلف في ذكر مشايخ الشيخ المعمر أبي محمد عبد الحق بن خلف (ص: ٣٣٢-٣٣٣). وأورده صاحب كتاب فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب: (ص: ٣٥). قلت: (محمد): ولم أجده موصولًا ولذا فهو ضعيف جدًّا.
(٣) أصدقاء.

علىٰ ذلك وأنشأ يقول:

ومـا زال يرعـىٰ ذِمَّتـي ويحـوطني ... ويحفـظ عرسـي والخليـل يخـون
فواعجبـا للخـلِّ يهتـك حُرمتـي ... ويـا عجبًـا للكلـب كيـف يصـونُ(١)

وقيل: إنه هجر من كان يعاشره واتّخذ كلبه نديما، وصاحبه فتحدث به العرب وأنشأ يقول:

فلَلكلـبُ خيـرٌ مـن خليـل يخـونني ... ويـنكِحُ عرسـي بعـد وقـت رحيلـي
سـأجعلُ كلبـي مـا حييـتُ منـادِمي ... وأمنحُـه وُدِّي وصـفوَ خليلـي(٢)

○ الإشارة الثانية: إشارة عامة بالحيوانات والكائنات:

* قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النور: ٤١- ٤٢].

---

(١) فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب (ص: ٥٩).
(٢) فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب (ص: ٦٠). بتصرف.

- وهذه الآيات تتكلم عن شيء عجيب وهو تسبيح الكائنات لله والملفت للنظر أن الله قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ [الحج: ١٨]، ولم يقل والناس إنما قال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨].

- وإذا ألقينا نظرة علىٰ حال كثير من الناس وعلىٰ حال الدواب سنجد الأمر عجبًا، ولقد ذكرت السنة لنا مواقف عن الإبل والبقر وغيرها من الحيوانات تؤكد علىٰ عبودية هذه الكائنات، وأكتفي بمثال واحد.

○ تمييز وإدراك الإبل:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدِ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - قَالَ بَهْزٌ، وَعَفَّانُ: فَلَمَّا رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: «**مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟**» فَجَاءَ فَتًىٰ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللهُ، إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**». (١)

فالإبل تعرف رسول الله وإذا قارنا حال الإبل مع كثير من الناس لوجدنا أن الإبل حالها أفضل من حال كثير من الناس.

***

(١) مسند أحمد: (١٧٤٥).

مِيزَانُ الْغَلَبَة

خُمَاسِيَّةٌ وِجْدَانِيَّة حَوْلَ آيَاتٍ قُرْآنِيَّة

مِيزَانُ الْغَلَبَة
خُمَاسِيَّةٌ وِجْدَانِيَّة حَوْلَ آيَاتٍ قُرْآنِيَّة

نص الميزان

✍ يقول صاحب الموازين حفظه الله تعالىٰ:

○ **خُمَاسِيَّةٌ وِجْدَانِيَّة حَوْلَ آيَاتٍ قُرْآنِيَّة:**

قُـــلْ لِلطُّغَـــاةِ تَلَفْلَفُـــوا ... حَـــوْلَ الضَّـــعِيفِ وأَتْلَفُـــوا
هَـــلْ غَـــرَّكُمْ مَـــنْ أُتْرِفُـــوا ... عَمَّـــا قَلِيـــلٍ تَأْسَـــفُوا
حَـــبْسُ الْحُمَـــاةِ فَلَـــنْ يَطُـــولَ ... ولَـــنْ يَـــدُومَ تَعَسُّـــفُ
وَعْـــدُ الْإِلَـــهِ لِحَقِّـــهِ ... إِظْهَـــارُهُ فَلْتَعْرِفُـــوا

- ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٤ - ٦].

- ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢].

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٠- ٢١].

- ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٨- ٩].

***

۞ شرح الخماسية الوجدانية:

✍ يقول صاحب الموازين: قُلْ لِلطُّغَاةِ تَلَفْلَفُوا.

ولنا هنا وقفتان:

❍ **الوقفة الأولى: مع بيان الطغيان.**

معنى الطغيان في اللغة:

جاء في لسان العرب: طغىٰ يطغىٰ طغيانًا ويطغو طغيانًا: جاوز القدر، وارتفع وغلا في الكفر. وأطغاه المال: جعله طاغيًا. وكل شيء جاوز القدر فقد طغىٰ. وطغىٰ الماء والبحر: ارتفع وعلا كل شيء. وجاء في مفردات الراغب[(١)]: أطغاه كذا: حمله علىٰ الطغيان، وذلك تجاوز الحددّ في العصيان. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] استعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحدَّ. [(٢)]

وجاء في «المعجم الوسيط» طغىٰ طغيًا وطغيانًا: جاوز الحدّ المقبول. وطغىٰ الماء: فاض وتجاوز الحدّ في الزيادة. وطغىٰ فلان: غلا في العصيان. وطغىٰ فلان: تجبر وأسرف في الظلم. [(٣)]

معنى الطغيان في الشرع:

ومعنىٰ الطغيان في الشرع يقوم علىٰ أساس معناه في اللغة، فيراد به تجاوز

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٣٠٤.
(٢) لسان العرب، ج١٩، ص ٢٣١.
(٣) المعجم الوسيط، ج٢، ص ٥٦٥.

الإنسان حده وقدره. وحدّ الإنسان هو ما حده الله له من حدود لا يجوز أن يتجاوزها.

وقدْر الإنسان هو قدْرهُ باعتباره عبدًا لله تعالىٰ فتلزمه طاعة سيده ومولاه، وبقاؤه في نطاق العبودية له، فإن تجاوز ما حدّ الله تعالىٰ للإنسان من حدود لا يتجاوزها أو تجاوز قدره وقع في المعصية والتمرد علىٰ الله. وعلىٰ ما قلناه من معنىٰ الطغيان في الشرع دلت آيات القرآن الكريم، فمن هذه الآيات ما يأتي.

○ أمثلة على معنى الطغيان في الشرع:

أ ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود: ١١٢] قال الزمخشري: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾ [هود: ١١٢] ولا تخرجوا عن حدود الله(١)، وقال الآلوسي: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾ [هود: ١١٢] أي لا تنحرفوا عما حُدَّ لكم بإفراط أو تفريط (٢).

ب ـ وقال تعالىٰ مخاطبًا موسىٰ عليه السلام: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه: ٢٤]، وقال القرطبي في معنىٰ: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه: ٢٤] أي إنه عصىٰ وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحدّ (٣).

وقال الآلوسي: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه: ٢٤] أي جاوز الحدّ في التكبر

(١) تفسير الزمخشري، ج٢، ص ٤٣٣.
(٢) تفسير الآلوسي، ج١٢، ص ١٥٣.
(٣) تفسير القرطبي، ج١١، ص ١٩٢.

والعتو والتجبر حتىٰ تجاسر علىٰ العظيمة التي هي دعوىٰ الربوبية[١].

❍ ما يحمل الإنسان على الطغيان:

وأعظم ما يحمل الإنسان علىٰ الطغيان ما يصير عنده من مال كثير أو ما يكون له من سلطان نافذ.

فالأول: هو طغيان المال، أي الطغيان الذي سببه المال.

والثاني: هو طغيان السلطان أي الطغيان الذي سببه السلطة التي تكون للإنسان.

وكلا النوعين من الطغيان مدمر ومهلك وفقًا لسنة الله تعالىٰ التي لا تتخلف. ونذكر فيما يلي شيئًا عن هذين النوعين من الطغيان.

- النوع الأول: طغيان المال:

المال هو كل ما تميل إليه النفس ويهنأ به العيش ويُتوصَل به إلىٰ ما تهواه النفس من متاع أو ملذات.

ومن مظاهر طغيان المال أو من نتائجه وثمراته جعل الإنسان من المترفين.

ومن ثمرات طغيان المال بطر نعمة المال.

- النوع الثاني: طغيان السلطة:

المقصود بطغيان السلطة تجاوز الإنسان حدّه وقدره بسبب ما أوتيه من

(١) تفسير الآلوسي، ج١٦، ص ١٨١.

سلطة الأمر والنهي ونفاذهما علىٰ الغير ولو جبرًا وقهرًا عند الاقتضاء وأكثر ما يكون هذا الطغيان عند الحكام وولاة الأمور لأن سلطتهم وطغيانهم تتعلقان بعموم الناس وهم الذين يبتلون بشرور طغيانهم.

- النموذج لطغيان السلطة:

والنموذج لطغيان السلطة، طغيان فرعون، الذي كان من مظاهر تجاوزه حدّه وقدره تكبره علىٰ الخالق حتىٰ ادعىٰ لنفسه الربوبية، وتكبره علىٰ خلق الله حتىٰ استعبدهم وظلمهم وغمطهم حقوقهم.

وقد كرر الله تعالىٰ قصة فرعون في آيات كثيرة للاعتبار والاتعاظ لحاجة الناس إلىٰ الاعتبار بقصة هذا الطاغية وما حلّ به عقابًا لطغيانه، لكثرة ما يبتلىٰ البشر بطغيان السلطة. ومن جملة ما ورد في القرآن الكريم فرعون وطغيانه قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النازعات: ١٥-١٧].

قال الإمام الرازي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النازعات: ١٧] قال بعض المفسرين معناه أنه تكبر علىٰ الله وكفر به.

وقال آخرون إنه طغىٰ علىٰ بني إسرائيل. والأولىٰ عندي الجمع بين الأمرين، فالمعنىٰ أنه طغىٰ علىٰ الخالق بأن كفر به وطغىٰ علىٰ الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم. (١)

(١) تفسير الرازي، ج٣١، ص ٣٩.

. طغيان السلطة ودعوى الربوبية:

وقد يصل طغيان السلطة بالإنسان إلىٰ حد ادّعاء الربوبية لنفسه إما بلسان الحال وإما بلسان المقال كما فعل فرعون، قال تعالىٰ حكاية عما ادّعاه فرعون لنفسه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤].

. ما تعنيه دعوى الربوبية:

فرعون ادّعىٰ الربوبية لنفسه فبلغ ذروة الطغيان والكفر، وهذه الدعوىٰ الباطلة لنفسه (أنه يجب علىٰ من تحت يده طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره [١]، وقال الرازي فيما تعنيه هذه الدعوىٰ التي أطلقها لنفسه (أي فأنا ربكم بمعنىٰ مربيكم والمحسن إليكم وليس للعالم إله حتىٰ يكون له عليكم أمر ونهي، فليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي. [٢]

. من طغيان السلطة ظلم الناس:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

قال ابن كثير في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ

(١) تفسير الآلوسي، ج١٦، ص ٢٠٣.
(٢) تفسير الرازي، ج٣١، ص ٤٢.

﴿١٢﴾﴾ [الفجر: ١١- ١٢] أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذىٰ للناس(١). وقال الآلوسي في قوله تعالىٰ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر: ١٠] وصف بذلك لكثرة جنوده، أو لأنه كان يدق للمُعذَّب أربعة أوتاد ويشده بها مطروحًا علىٰ الأرض فيعذبه بما يريد من ضرب أو إحراق أو غيره. (٢)

وفي تفسير القرطبي: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر: ١٠] أي الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشد ملكه، قاله ابن عباس.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾ [الفجر: ١١] يعني عادًا وثمود وفرعون ﴿طَغَوْا۟﴾ أي تمردوا وعتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر: ١٢] أي الجور والأذىٰ. (٣)

❍ الوقفة الثانية: مع قوله: تَلَفْلَفُوا.

- إن صاحب الموازين حفظه الله يقصد هنا أن يوضح موقف الطغاة، وتجمعهم علىٰ باطلهم، من أجل محاربة أهل الحق، وهذا ديدنهم علىٰ مر التاريخ، تلفلفوا وتجمعوا علىٰ رأىٰ واحد وهو محاربة الحق وأهله وصدق ربنا القائل: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٣].

وانطلاقًا من هذه الآية أقول:

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص ٥٠٨.
(٢) تفسير الآلوسي، ج٣٠، ص ١٢٤.
(٣) تفسير القرطبي، ج٣٠، ص ٤٨.

إنّ عداوة أهل الباطل لأهل الحق عداوة ظاهرة، وحربهم عليهم حرب مكشوفة سافرة، لا ينكرها أحد، ولا تخفىٰ علىٰ أحد، لأنها عداوةٌ تضطرم في صدورهم كالنار، وتشتعل في قلوبهم اشتعال النار في الهشيم، يحاولون إخفاءها ولكنها من شدتها وقوتها تظهر للعيان، وتطفح فوق السطح، فيلمسها ويرىٰ آثارها الجميع، فما هو سر هذا العداء؟ ولماذا تفرق شملهم إلا علي أهل الحق؟ ولم يرددون في كل زمان ومكان نفس التهم؟ ويستخدمون نفس الأساليب، ويسيرون في حربهم قديمًا وحديثًا علىٰ نهج واحد وأسلوب متكرر؟.

❍ القرآن يكشف سر العداوة:

لقد كشف الله -سبحانه وتعالىٰ لنا السر في ذلك، وبيّن الحقيقة التي تقف وراء هذا التواطؤ والإجماع علىٰ اتهام أهل الحق، وحربهم بالقول والفعل، فقال الله -جل وعلا- في كتابه العظيم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٥].

❍ التهم التي يوجهها أهل الباطل ليردوا بها الحق:

إن هذه الآيات العظيمة بينت أن مواقف الأمم المعاندة لا يتغير من وقت إلىٰ آخر، فهو موقف ثابت عبر العصور، كلما جاء داعي الخير إلىٰ أمة من الأمم اتهموه بنفس التهم التي اتُهم بها من قبله من الرسل ودعاة الحق، فأهل الباطل جميعًا مع اختلاف أزمانهم وأماكنهم قالوا عن نبيهم ورسولهم أنه ساحر، وذلك لما يرون من قوة تأثير كلامه وشدة وقعه علىٰ النفوس، وكلهم

قالوا مجنون لأنه أتاهم بما هو مخالف وغير مألوف لهم، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ﴾ [الذاريات: ٥٣] أي هل أوصىٰ بعضهم بعضًا بهذه الكلمات، فيرددها الأولون والآخرون؟.

فهؤلاء يقولون: إن به سفاهة.

وأولئك يقولون: به ضلالة!

وآخرون يقولون: مجنون!

جماعة يقولون: ساحر وبعضهم يقول: اعتراه بعض آلهتنا بسوء، وهؤلاء وهؤلاء، هل أوصىٰ بعضهم بعضًا بهذه الكلمات المكررة التي يرددها الجميع وجاءت علىٰ لسان الكل؟!!

الجواب لا قطعًا، لأنهم متباعدون في الفترة والمكان، ولا توجد لديهم وسائل اتصالات حديثة حتىٰ يُعلّم بعضهم بعضًا هذه التهم أو يسمعها هؤلاء من هؤلاء، وليس من المعقول أن يعلم الذين في المشرق ما قاله إخوانهم في المغرب لرسولهم فيعيدون له ما قال أولئك، إذن فما السر؟ ولماذا ردد الجميع هذه الكلمات والعبارات؟ اسمعوا الجواب: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٣]. وهنا يظهر لنا المراد من قول صاحب الموازين: **قُلْ لِلطُّغَاةِ تَلَفْلَفُوا**.

إذًا: الدوافع واحدة والأسباب واحدة، فكانت النتيجة واحدة، جاءهم رسول بما لا تهوىٰ أنفسهم، ولم تعتد آذانهم سماعه، ولم تألف حياتهم هذه الأوامر والنواهي، فردوها ورفضوها، وعيروا النبي بأنه ساحر أو مجنون

بسبب الطغيان الذي قام في نفوسهم، والكفر الذي تجذر في قلوبهم، جعل قلوبهم تتشابه، فتردد بألسنتهم ما في قلوبهم من الجحود والطغيان، والكفر والعناد، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١١٨]، ويقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الطور: ٣٢].

○ أعداء اليوم يرددون اتهامات من قبلهم:

ولا ينقضي العجب حين يسمع المسلم أعداء اليوم وهم يرددون نفس هذه التهم، ويرددون نفس العبارات التي قالها أئمة الكفر من قبلهم، فنراهم ونسمعهم اليوم، وعلىٰ ألسنتهم جميعًا مع اختلاف أديانهم، وطوائفهم، ومشاربهم، إلا أن اتهاماتهم موحدة، وكأنهم يتناوبون ويتواصون علىٰ ذلك، يصفوننا بالإرهاب، والرجعية، والتخلف، إلىٰ غير ذلك من أنواع الشائعات، وألوان التهم والشبهات المكررة، كما بيَّن الله سبحانه وتعالىٰ هذا المسلسل الماضي الذي يستمر فيه أهل الطغيان حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣].

- إن أهل الزيغ يسيرون علىٰ نهج واحد ونسق موحد في إلصاق التهم بهذا الدين، وهمز ولمز دعاته الصادقين ورجاله المخلصين، يأخذ لاحقهم عن سابقهم هذه الادعاءات الكاذبة، ويتوارثونها كابرًا عن كابر، وكأنهم أوصىٰ بعضهم بعضًا بها، ومن هنا فإنه يجب علىٰ أهل الإسلام أن لا يضيقوا ذرعًا بما يوجه إليهم من الشبهات والاتهامات المختلفة التي يلقيها أعداء

الإسلام في كل الوسائل، وبكل الأساليب والطرق، لأنها اتهامات مكررة ومعادة وليس فيها جديد، وقد وجهت إلىٰ من هو خير منا وأفضل منا وهم الأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- أجمعين، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣]، لكن مع هذا يجب علىٰ المسلم أن يسعىٰ لقطع الاتهامات عن دينه ونفسه، ورد الشبهات ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ [الأنفال: ٤٢].

○ التاريخ يعيد نفسه:

إن قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، يذكرنا أن التاريخ يعيد نفسه، وأن عجينة الكفر واحدة وإن اختلفت مللها ونحلها، وزمانها ومكانها، وقد رأينا كيف أن الله -سبحانه وتعالىٰ- شبه لنا تماثل أساليب أصحاب الباطل، قديمًا وحديثًا في الصد عن سبيل الله حتىٰ لكأنَّ أولهم أوصىٰ أخرهم، وأن الطغيان إذا سيطر علىٰ القلوب والنفوس، فإنه ينتج عنه نفس الأساليب، وتصدر عنه نفس الانفعالات لمقاومة الحق ومحاربة أهله وحملته، ومن نظر في واقعنا نظرة تأمل وتدقيق وجد أن أعداء الإسلام في مؤتمراتهم، وإعلامهم، ومحافلهم، يرددون ما قاله الملأ من قبل، ويأتون بنفس الأساليب التي جاء بها شياطينهم الذين سبقوهم في الكفر والطغيان؛ لأنهم يتلقون هذا من مصدر موحد وهو المصدر الشيطاني، وايحاءاته الخبيثة، ووساوسه الملعونة، التي يوحي بها إلىٰ أوليائه والمقربين منه، وصدق الله -تبارك وتعالىٰ- إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ

نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

إن القلوب عندما تمتلئ بالعصيان والطغيان فإنها تتشابه في ما يصدر منها من أقوال وأفعال، وإن تباعد أهلها في المكان، واختلفوا في الزمان، وهذا ليس علىٰ مستوىٰ الكفر فقط، وإنما حتىٰ علىٰ مستوىٰ المعاصي والبدع.

فتجد أن أصحاب البدعة قد تشابهت قلوبهم فيما يرددون من شبهات يردون بها الآيات القرآنية، ويخالفون بها الأحاديث النبوية، وتتشابه قلوبهم في ما ينتج عنهم من البدع والمحدثات القولية والعملية.

وهكذا أهل المعاصي فأصحاب المخدرات مثلًا يحبون المخدرين والمحششين في كل مكان في العالم، وإذا نظرت إلىٰ أساليبهم وطرقهم فتكاد أن تكون واحدة، وكأنهم قد أوصىٰ بعضهم بعضا، وإذا استمعت إلىٰ قصصهم تجدها تتشابه، لأن القلوب أصلًا قد تشابهت في المعصية، فتشابهت العبارات، والطرق، والأساليب، والأفعال، والنتائج، ومثلهم السرَّاق، والزناة، وأكلة الحرام، وغيرهم.

وهكذا الطغاة والظلمة والجبابرة من الحكام والملوك في كل الأزمنة والأمكنة، انظر إليهم فسترىٰ أن تصرفاتهم واحدة، وعنجهيتهم وأساليب بطشهم، وكلماتهم الإجرامية، كلها أفعال واحدة، وكأنهم يطبقون وصية واحدة أوصاهم بها الشيطان الرجيم، فكلهم يقوم علىٰ تنفيذها بالحرف الواحد.

✍ ثم يقول صاحب الموازين: **حَوْلَ الضَّعِيفِ وأَتْلَفُوا**.

فقوله: حَوْلَ الضَّعِيفِ. يعني أن أهل الباطل ظنوا أن الطائفة المؤمنة ضعيفة، لا قوة لهم ولا منعة، وهذا ديدنهم دائمًا ينظرون هذه النظرة الدونية لأهل الحق علىٰ أنهم ضعفاء.

- ولنتأمل ما قاله قوم مدين لنبي الله شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ ﴾ [هود: ٩١] فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح، لا يريدون أن يدركوه: ﴿ بِعَزِيزٖ ٩١ ﴾ [هود: ٩١]، وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ ﴾ [هود: ٩١]، فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها.

- وفرعون لما أصابه الخزي والخسارة بإيمان السحرة نظر لهم نفس النظرة، نظرة الضعف فقال كما جاء في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق - وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها - أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم - وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئا - أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم - وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها، أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق، أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار، أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين! ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور!

ثم تتأكد النظرة الفرعونية نظرة الضعف للسحرة فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، إنه التعذيب والتشويه والتنكيل.. وسيلة الطغاة في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟.. لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٥- ١٢٦].

إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع، كما أنه لا يخضع أو يخنع، إنه الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، والذي يدرك طبيعة المعركة، وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يداهن ولا يناور.. ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، والذي يعرف أين يتجه في المعركة، وإلى من يتجه لا يطلب من خصمه السلامة والعافية، إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة

والوفاة على الإسلام: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ثم قال صاحب الموازين: وأَتْلَفُوا.

لما نظر الطغاة لأهل الحق نظرة الدونية، والضعف (**أتلفوا**). **والإتلاف يدخل في دائرة الفساد والإفساد.**

وهنا نستصحب قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾ [غافر: ٤ - ٦]. الذي استشهد به فضيلة الدكتور لنوضح المراد. **من قوله: وأَتْلَفُوا.**

- **قلنا:** إن الفساد والإفساد داخل في الإتلاف، وصور الإتلاف واضحة في الآيات السابقة وبيانها كالآتي:

١ - فقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]. فيه بيان لحقيقة وهي: أن الوجود كله مقتنع بآيات اللّه الشاهدة بحقيقته ووحدانيته، وما من أحد يجادل فيها إلا الذين كفروا وحدهم، شذوذا عن كل ما في الوجود وكل من في الوجود: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]. وهذه صورة من صورة الإتلاف والإفساد واضحة.

٢- وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، فالتكذيب للأنبياء نوع من أنواع الإتلاف والإفساد واضح.

إنها قصة قديمة من عهد نوح، ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان، وهذه الآية تصور هذه القصة، قصة الرسالة والتكذيب والطغيان علىٰ مدىٰ القرون والأجيال كما تصور العاقبة في كل حال.

رسول يجيء. فيكذبه طغاة قومه. ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة، إنما هم يلجأون إلىٰ منطق الطغيان الغليظ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول.

٣- وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] فيه بيان لصورة من صورة الإتلاف والإفساد واضحة، فهم يموهون علىٰ الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق.

✍ **ثم يقول صاحب الموازين: هَلْ غَرَّكُمْ مَنْ أُتْرِفُوا؟.**

فقوله: هَلْ غَرَّكُمْ مَنْ أُتْرِفُوا؟. استفهام توبيخي إنكاري، هل اغتر الطغاة بحال من أترفوا؟

والترف الدنيوي أمر مذموم ولا يكون إلا لأهل الدنيا والمعاصي قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٤].

فأهل الترف أشد الناس استغراقًا في المتاع والانحراف والذهول عن

المصير، ولهم اعتراض مكرور هو الاعتراض علىٰ بشرية الرسول قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وهو الاعتراض الناشئ من انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين، وبين النفخة العلوية التي تصل الإنسان بخالقه الكريم، والترف يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترىٰ دلائل الهداية فتستكبر علىٰ الهدىٰ وتصر علىٰ الباطل ولا تتفتح للنور، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقىٰ وتتأثر وتستجيب.

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب اللّه، ويخالون أنه آية الرضىٰ عنهم، أو أنهم في مكان أعلىٰ من الحساب والجزاء فبعد أن قالوا ما وضحه القرآن: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤]، إذا بهم يقولون كما حكىٰ القرآن: ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ: ٣٥]، والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند اللّه ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة ولا يدل علىٰ رضىٰ ولا غضب من اللّه ولا يمنع بذاته عذابا ولا يدفع إلىٰ عذاب. إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء، وعن الرضىٰ والغضب، يتبع قانونا آخر من سنن اللّه: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ

أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ [سبأ: ٣٦-٣٧]، ومن هنا يحارب الإسلام الترف ويقيم نظمه الاجتماعية علىٰ أساس لا يسمح للمترفين بالوجود بين المسلمين، لأنهم كالعفن يفسد ما حوله، حتىٰ لينخر فيه السوس، ويسبح فيه الدود!

ونرجع للآيات التي استشهد بها صاحب الموازين حفظه الله وتحديدًا قوله تعالىٰ: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر: ٤]، فعنوان الترف الزائد هو التقلب في البلاد ولذلك قال: ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، لأن تقلب الذين كفروا في البلاد، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان، ومن مظاهر المكانة والسلطان.

وهنا ملمح دقيق في قوله تعالىٰ: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر: ٤]، فالله سبحانه قدَّم قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ ﴾ [غافر: ٤]، علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر: ٤]، وهذا علاج قلبي وتثبيت إيماني، فقبل أن يذكر التقلب في البلاد وضح للمؤمنين طريق الثبات، ولعل السرَّ في تقديم قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ ﴾ هو أن مظهر المترفين الذين يتقلبون في البلاد مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة. يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان، ويعانون الأذىٰ والجهد، ويعانون المطاردة أو الجهاد.. وكلها مشقات وأهوال، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون!.. ويحيك منه

شيء في قلوب الجماهير الغافلة، وهي ترىٰ الحق وأهله يعانون هذا العناء، والباطل وأهله في منجاة، بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيدهم ضلالا وبطرا ولجاجا في الشر والفساد.

- ولذلك قدَّم ربنا الدواء قبل ذكر الداء حتىٰ يثبت المؤمن أمام الابتلاءات، ولا يضعف أمام المغريات، ولقد كان من دعاء رسولنا ﷺ في صلاته: «**اللهمّ إنّي أسألك الثّبات في الأمر والعزيمة علىٰ الرّشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم**».(١)

✍ **ثم يقول صاحب الموازين: عَمَّا قَلِيلٍ تَأْسَفُوا.**

فهو هنا يوضح حفظه الله سنة من سنن الله الثابتة، وهي سنّة ماضية لا تتخلف جرت علىٰ الطغاة السابقين وستجري علىٰ الحاضرين والقادمين وهي إنزال الله في الطغاة العقاب في الدنيا، فلن يفلت أحد منهم من عقاب الله في الدنيا كما لا يفلت أحد منهم من عقاب الآخرة، ولذلك أهل الترف والطغيان، والتقلب في البلاد حتما سيندمون، ويتأسفون علىٰ ما فعلوه.

قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي

(١) النسائي (٣/ ٥٤) وهذا لفظه. والترمذي (٣٤٠٧). وأحمد- المسند ٤/ ١٢٥، وللحديث طريق أخرىٰ رواها الطبراني (٧١٣٥) رجالها ثقات سوىٰ محمد بن يزيد الذي وثقه ابن حبان، وذكره الهيثمي عن البراء بن عازب، مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٣، والحديث بذلك له طرق عديدة يتقوّىٰ بها.

ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦ - ١٤]، وقد جاء في تفسيرها: أي أنزل عليهم رجزًا من السماء وأحلّ بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين.(١)

وفي تفسير الآلوسي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤] تعليل لما قبله وإيذانٌ بأنَّ كفارَ قومِه ﷺ سيصيبهم مثل ما أصاب أضرابهم المذكورين من العذاب.

والآية وعيد للعصاة مطلقًا، وقيل وعيد للعصاة ووعيد لغيرهم وهو ظاهر قول الحسن(٢).

وفي تفسير القرطبي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤] أي يرصد عمل كل إنسان حتىٰ يجازيه به(٣).

- **وقال تعالىٰ:** ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧] متاع قليل.. ينتهي ويذهب.. أما المأوىٰ الدائم الخالد، فهو جهنم.. وبئس المهاد!

- وأهل الترف تنطبق عليهم سنة ربانية كما ذكرت، وفي القرآن آية تقرر سنة اللّه هذه قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦]، وهكذا تمضي سنة اللّه في

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص ٥٠٨.
(٢) تفسير الآلوسي، ج٣٠، ص ١٢١.
(٣) تفسير القرطبي، ج٣٠، ص ٤٨.

إهلاك القرىٰ وأخذ أهلها في الدنيا، فإذا قدر اللّه لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون(١)، فلم تدافعهم ولم تضرب علىٰ أيديهم، سلط اللّه هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحقت عليها سنة اللّه، وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسئولة عما يحل بها لأنها لم تضرب علىٰ أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم اللّه عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط اللّه عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلىٰ الهلاك.

- إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسننا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة اللّه وتحق كلمته. واللّه لا يأمر بالفسق، لأن اللّه لا يأمر بالفحشاء. لكن وجود المترفين في ذاته، دليل علىٰ أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قدر اللّه سيصيبها جزاء وفاقا.

وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة.

(١) المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتىٰ تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب علىٰ أيديهم عاثوا في الأرض فسادا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها. ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوىٰ صفحتها.

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب، ولكنها ترتب النتيجة علىٰ السبب. الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به. والأمر ليس أمرا توجيهيا إلىٰ الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة علىٰ وجود المترفين وهي الفسق.

وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها. وعدم الضرب علىٰ أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا، وهذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح، قرنا بعد قرن، كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلىٰ ذلك المصير، واللّه هو الخبير بذنوب عباده البصير: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

- وقال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٦].

يوضح لنا ربنا هنا ويرسم مشهد انتباه المترفين علىٰ الكارثة الباغتة المفاجئة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، والمترفون أشد الناس استغراقا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير، وها هم أولاء يفاجأون بالعذاب الذي يأخذهم أخذا، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤار، مستغيثين مسترحمين، وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور، ثم ها هم أولاء يتلقون الزجر والتأنيب: ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٥]، وإذا المشهد حاضر، وهم يتلقون الزجر

والتأنيب، والتيئيس من كل نجدة ومن كل نصير، والتذكير بما كان منهم وهم في غمـــرتهم مســـتغرقون: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ (١) عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، فتتراجعون علىٰ أعقابكم كأن ما يتلىٰ عليكم خطر تحاذرونه، أو مكروه تجانبونه، مستكبرين عن الإذعان للحق. ثم تزيدون علىٰ هذا سوء القول وهجره في سمركم، حيث تتناولون الرسول - ﷺ - وما جاء به بكلمات السوء.

○ من يعتبر بسنة الله في الطغاة؟

وسنة الله في الطغاة وما ينزله من عقاب في الدنيا إنما يعتبر بهذه السنة العامة من يخشىٰ الله جلّ جلاله ويخاف عقابه ويعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابي أحدًا قال تعالىٰ في بيان المعتبرين بسنته في الطغاة، بعد أن ذكر ما حلّ بفرعون من سوء العقاب، ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾[النازعات: ٢٥- ٢٦].

---

(١) والعجب العجاب أن هؤلاء ديدنهم واحد في رد آيات الله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الجاثية: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر: ٤].

✍ ثم يقول صاحب الموازين:

حَـــبْسُ الْحُمَـــاةِ فَلَـــنْ يَطُـــولَ ... ولَـــــنْ يَـــــدُومَ تَعَسُّـــــفُ

✍ وقبل التفصيل في قول المؤلف حفظه الله:

حَـــبْسُ الْحُمَـــاةِ فَلَـــنْ يَطُـــولَ ... ولَـــــنْ يَـــــدُومَ تَعَسُّـــــفُ

أقول: إن الابتلاء - بصفة عامة- سنة الله في خلقه، وهذا واضح في تقريرات القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطًا وثيقًا، فلقد جرت سنة الله تعالىٰ ألا يُمكِّن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية علىٰ الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالىٰ أن يبتلي المؤمنين ويختبرهم، ليمحص إيمانهم ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنىٰ علىٰ لسان الإمام الشافعي رحمه الله حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يُمكن أو يبتلىٰ؟ فقال الإمام الشافعي: لا يمكن حتىٰ يبتلىٰ، فإن الله تعالىٰ ابتلىٰ نوحًا وإبراهيم، وموسىٰ وعيسىٰ، ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

❍ حكمة الابتلاء وفوائده:

للابتلاء حكم كثيرة من أهمها:

١- تصفية الصفوف:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل؛ وذلك لأن المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالىٰ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢].

٢- تربية الجماعة المسلمة.

٣- الكشف عن خبايا النفوس.

٤- الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة.

٥- معرفة حقيقة النفس.

٦- معرفة قدر الدعوة.

٧- الدعاية لها.

فصبر المؤمنين علىٰ الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين وهي التي تدخل الناس في دين الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلىٰ النبي ﷺ، ثم يأتيه أمر النبي ﷺ أن يمضي إلىٰ قومه يدعوهم، ويصبر علىٰ تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتىٰ يعود بقومه إلىٰ رسول الله ﷺ.

٨- جذب بعض العناصر القوية إليها:

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلىٰ هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحاملوها، فيسارعون إلىٰ الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلىٰ هذا الدين من خلال هذا الطريق.

٩- رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:

قال رسول الله ﷺ: «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً**». (١)

فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالىٰ لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالىٰ حتىٰ يرفعه إليها، كما أن الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم.

❍ كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها:

معرفة عز الربوبية وقهرها، معرفة ذل العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلىٰ الله والإقبال عليه، التضرع والدعاء، الحلم عمن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاء ومساعدتهم علىٰ بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، ما أعده الله تعالىٰ علىٰ هذه الفوائد من ثواب الآخرة علىٰ اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد.

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث: (١/ ١٦٦/ ١٦٩).

✍ والآن إلىٰ بيان قوله حفظه الله تعالىٰ:

حَـــبْسُ الْحُمَـــاةِ فَلَـــنْ يَطُـــولَ ... ولَـــــنْ يَـــــدُومَ تَعَسُّـــــفُ

✍ فأقول مستعينًا بالله:

إن أهل الباطل لا يملكون حجة أمام أهل الحق، وهذا واضح وجليّ في كتاب الله تعالىٰ، فلقد ذكر الله لنا نماذج من مناظرات الأنبياء مع أهل الباطل، وكيف انهزم الباطل أمام الحق ولنتأمل الآتي:

۞ المناظرات مع أهل الباطل:

○ مناظرة إبراهيم قومه في عبادة الأصنام:

* **يقول ابن كثير:** يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ عليه السلام أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَىٰ قَوْمِهِ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَحَقَّرَهَا عِنْدَهُمْ وَصَغَّرَهَا وَتَنَقَّصَهَا فَقَالَ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢] أَيْ مُعْتَكِفُونَ عِنْدَهَا وَخَاضِعُونَ لَهَا ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٣] مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا صَنِيعُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَنْدَادِ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥٤] كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الصافات: ٨٥ - ٨٧].

* **قَالَ قَتَادَةُ:** فَمَا ظَنُّكُمْ بِهِ أَنَّهُ فَاعِلٌ بِكُمْ إِذَا لَقِيتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ وَقَالَ لَهُمْ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٤] سَلَّمُوا لَهُ أَنَّهَا لَا تَسْمَعُ دَاعِيًا وَلَا

تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ شَيْئًا وَإِنَّمَا الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَىٰ عِبَادَتِهَا الِاقْتِدَاءُ بِأَسْلَافِهِمْ وَمَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ فِي الضَّلَالِ مِنَ الْآبَاءِ الْجُهَّالِ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧] وَهَذَا بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ بُطْلَانِ إِلَهِيَّةِ مَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْأَصْنَامِ لِأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهَا وَتَنَقَّصَ بِهَا فَلَوْ كَانَتْ تَضُرُّ لَضَرَّتْهُ أَوْ تُؤَثِّرُ لَأَثَّرَتْ فِيهِ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٥] يَقُولُونَ هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَقُولُهُ لَنَا وَتَنْتَقِصُ بِهِ آلِهَتَنَا وَتَطْعَنُ بِسَبَبِهِ فِي آبَائِنَا تَقُولُهُ مُحِقًّا جَادًّا فِيهِ أَمْ لَاعِبًا ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٦] يَعْنِي بَلْ أَقُولُ لَكُمْ ذَلِكَ جَادًّا مُحِقًّا وَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هو ربكم ورب كل شيء فاطر السموات وَالْأَرْضِ الْخَالِقُ لَهُمَا عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٧] أَقْسَمَ لَيَكِيدَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ إِلَىٰ عِيدِهِمْ.

قِيلَ إِنَّهُ قَالَ هَذَا خُفْيَةً فِي نَفْسِهِ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ سَمِعَهُ بَعْضُهُمْ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً إِلَىٰ ظَاهِرِ الْبَلَدِ فَدَعَاهُ أَبُوهُ لِيَحْضُرَهُ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات: ٨٨- ٨٩].

عَرَّضَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ حَتَّىٰ تَوَصَّلَ إِلَىٰ مَقْصُودِهِ مِنْ إِهَانَةِ أَصْنَامِهِمْ

وَنُصْرَةِ دِينِ اللهِ الْحَقِّ فِي بُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُكَسَّرَ وَأَنْ تُهَانَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ.

فلمَّا خَرَجُوا إِلَىٰ عِيدِهِمْ واستقر هو في بلدهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ [الصافات: ٩١] أَيْ ذَهَبَ إِلَيْهَا مُسْرِعًا مُسْتَخْفِيًا فَوَجَدَهَا فِي بَهْوٍ عَظِيمٍ وَقَدْ وَضَعُوا بَيْنَ أَيْدِيَهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْأَطْعِمَةِ قُرْبَانًا إِلَيْهَا ﴿ فَقَالَ ﴾ لَهَا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالِازْدِرَاءِ ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات: ٩١ - ٩٣] لِأَنَّهَا أَقْوَىٰ وَأَبْطَشُ وَأَسْرَعُ وَأَقْهَرُ فَكَسَّرَهَا بِقَدُومٍ فِي يَدِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ [الأنبياء: ٥٨] أَيْ حُطَامًا كَسَّرَهَا كُلَّهَا ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٨] قِيلَ إِنَّهُ وَضَعَ الْقَدُومَ فِي يَدِ الْكَبِيرِ إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّهُ غَارَ أَنْ تُعْبَدَ مَعَهُ هَذِهِ الصِّغَارُ.

فَلَمَّا رَجَعُوا مِنْ عِيدِهِمْ وَوَجَدُوا مَا حَلَّ بِمَعْبُودِهِمْ ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

وَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ وَهُوَ مَا حَلَّ بِآلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فَلَوْ كَانَتْ آلِهَةً لَدَفَعَتْ عَنْ أَنْفُسِهَا مَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ لَكِنَّهُمْ قَالُوا مِنْ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلِهِمْ وَكَثْرَةِ ضَلَالِهِمْ وَخَبَالِهِمْ ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٩- ٦٠] أَيْ يَذْكُرُهَا بِالْعَيْبِ وَالتَّنَقُّصِ لَهَا وَالِازْدِرَاءِ بِهَا فَهُوَ الْمُقِيمُ عَلَيْهَا وَالْكَاسِرُ لَهَا.

وَعَلَىٰ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْ يَذْكُرُهُمْ بِقَوْلِهِ وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بعد أن

تولوا مُدْبِرِينَ ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦١] أي في الملأ الاكبر علىٰ رؤوس الْأَشْهَادِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ مَقَالَتَهُ وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ وَيُعَايِنُونَ مَا يَحِلُّ بِهِ مِنَ الِاقْتِصَاصِ مِنْهُ وَكَانَ هَذَا أَكْبَرَ مَقَاصِدِ الْخَلِيلِ عليه السلام أَنْ يجتمع النَّاس كلَّهم فَيُقِيمَ عَلَىٰ جَمِيعِ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ الْحُجَّةَ عَلَىٰ بُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ مُوسَىٰ عليه السلام لِفِرْعَوْنَ ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه: ٥٩] فلما اجتمعوا وجاؤوا بِهِ كَمَا ذَكَرُوا ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٢- ٦٣] قِيلَ مَعْنَاهُ هُوَ الْحَامِلُ لِي عَلَىٰ تَكْسِيرِهَا وإنما عرض لهم في القول ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وَإِنَّمَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ هذا أن يبادروا إلىٰ القول بأن هَذِهِ لَا تَنْطِقُ فَيَعْتَرِفُوا بِأَنَّهَا جَمَادٌ كَسَائِرِ الْجَمَادَاتِ ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٤] أَيْ فَعَادُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أنتم الظالمون أَيْ فِي تَرْكِهَا لَا حَافِظَ لَهَا وَلَا حارس عندها ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٥] قَالَ السُّدِّيُّ أَيْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أَيْ فِي عِبَادَتِهَا.

* وَقَالَ قَتَادَةُ: أَدْرَكَتِ الْقَوْمَ حَيْرَةُ سَوْءٍ أَيْ فَأَطْرَقُوا ثُمَّ قَالُوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أَيْ لَقَدْ عَلِمْتَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنَّ هَذِهِ لَا تَنْطِقُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنَا بِسُؤَالِهَا فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمُ الْخَلِيلُ عليه السلام: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا

﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦- ٦٧] كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: ٩٤] قَالَ مُجَاهِدٌ: يُسْرِعُونَ قَالَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات: ٩٥] أَيْ كَيْفَ تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ وَتُصَوِّرُونَهَا وَتُشَكِّلُونَهَا كَمَا تُرِيدُونَ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] وَسَوَاءٌ كَانَتْ مَا مَصْدَرِيَّةً أَوْ بِمَعْنَىٰ الَّذِي فمقتضىٰ الْكَلَامِ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ وَهَذِهِ الْأَصْنَامَ مَخْلُوقَةٌ فَكَيْفَ يعبد مخلوق لمخلوق مِثْلَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ عِبَادَتُكُمْ لَهَا بِأَوْلَىٰ مِنْ عِبَادَتِهَا لَكُمْ وَهَذَا بَاطِلٌ فَالْآخَرُ بَاطِلٌ لِلتَّحَكُّمِ إِذْ لَيْسَتِ الْعِبَادَةُ تَصْلُحُ وَلَا تَجِبُ إِلَّا لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٧- ٩٨].

عَدَلُوا عَنِ الْجِدَالِ وَالْمُنَاظَرَةِ لَمَّا انْقَطَعُوا وَغُلِبُوا وَلَمْ تبقَ لَهُمْ حَجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ لِيَنْصُرُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ سَفَهِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ فَكَادَهُمُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَأَعْلَىٰ كَلِمَتَهُ وَدِينَهُ وَبُرْهَانَهُ. (١)

وهكذا عجز أهل الباطل أمام الخليل، ولم يقدروا علىٰ مناظرته، فلم يجدوا إلا البطش والتنكيل والإحراق لرجل من الحماة بل من سادات الحماة عليه السلام، وصدق صاحب الموازين: حبس الحماة فلن يطول، ولن يدوم تعسف.

(١) البداية والنهاية: (١/ ١٤٤/ ١٤٥).

○ مناظرة موسى لفرعون:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

يَـذْكُرُ تَعَـالَىٰ مَـا كَـانَ بَـيْنَ فِرْعَـوْنَ وَمُوسَـىٰ مِـنَ الْمُقَاوَلَـةِ وَالْمُحَاجَّـةِ وَالْمُنَاظَرَةِ وَمَا أَقَامَهُ الكليم علىٰ فرعون اللئيم من الحجة العقيلة الْمَعْنَوِيَّةِ ثُمَّ الْحِسِّيَّةِ. وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَبَّحَهُ اللهُ أَظْهَرَ جَحْدَ الصَّانِعِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَزَعَمَ أَنَّهُ الْإِلَهُ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ ﴾ [القصص: ٣٨]. وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ مُعَانِدٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْإِلَهُ الْحَقُّ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]، وَلِهَذَا قَالَ لِمُوسَىٰ عليه السلام عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِنْكَارِ لِرِسَالَتِهِ وَالْإِظْهَارِ أَنَّهُ ما ثم رَبٌّ أَرْسَلَهُ ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣]؛ لِأَنَّهُمَا قَالَا لَهُ: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦] فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمَا وَمَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي تزعمان أنه أرسلكما وابعثكما فأجابه موسىٰ قائلًا: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتعددة مِنَ السَّحَابِ وَالرِّيَاحِ وَالْمَطَرِ

وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ مُوقِنٍ أَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِأَنْفُسِهَا ولا بد لها من موجد وَمُحْدِثٍ وَخَالِقٍ. وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿ قَالَ ﴾ أَيْ فِرْعَوْنُ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أُمَرَائِهِ وَوُزَرَائِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالتَّنَقُّصِ لِمَا قَرَّرَهُ مُوسَىٰ عليه السلام إلا تسمعون يَعْنِي كَلَامَهُ هَذَا قَالَ مُوسَىٰ مُخَاطِبًا لَهُ وَلَهُمْ ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦] أَيْ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَالْقُرُونِ السَّالِفَةِ فِي الْآبَادِ فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ وَلَا أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ وَلَمْ يَحْدُثْ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ وَخَلَقَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَهَذَانِ الْمَقَامَانِ هُمَا الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَسْتَفِقْ فِرْعَوْنُ مِنْ رَقْدَتِهِ وَلَا نَزَعَ عَنْ ضَلَالَتِهِ بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ طُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَكُفْرَانِهِ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٧- ٢٨] أَيْ هُوَ الْمُسَخِّرُ لِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ. الْمُسَيِّرُ لِلْأَفْلَاكِ الدَّائِرَةِ. خَالِقُ الظَّلَامِ وَالضِّيَاءِ. وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ خَالِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ السَّائِرَةِ وَالثَّوَابِتِ الْحَائِرَةِ خَالِقُ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارِ بِضِيَائِهِ وَالْكُلُّ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وتسييره سائرون وفلك يَسْبَحُونَ يَتَعَاقَبُونَ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ وَيَدُورُونَ فَهُوَ تَعَالَىٰ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ.

فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَجُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَانْقَطَعَتْ شُبَهُهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَوْلٌ سِوَىٰ

الْعِنَادِ عَدَلَ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ سُلْطَانِهِ وَجَاهِهِ وَسَطْوَتِهِ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٩ - ٣٣] وَهَذَانِ هُمَا الْبُرْهَانَانِ اللَّذَانِ أَيَّدَهُ اللهُ بِهِمَا وَهَمَا الْعَصَا وَالْيَدُ.

وَذَلِكَ مَقَامٌ أَظْهَرَ فِيهِ الْخَارِقَ الْعَظِيمَ الَّذِي بَهَرَ بِهِ الْعُقُولَ وَالْأَبْصَارَ حِينَ أَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ.

أَيْ عَظِيمُ الشَّكْلِ بَدِيعٌ فِي الضَّخَامَةِ وَالْهَوْلِ وَالْمَنْظَرِ الْعَظِيمِ الْفَظِيعِ الْبَاهِرِ حَتَّىٰ قِيلَ إِنَّ فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شَدِيدٌ وَخَوْفٌ عَظِيمٌ، وَهَكَذَا لَمَّا أَدْخَلَ مُوسَىٰ عليه السلام يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَاسْتَخْرَجَهَا أَخْرَجَهَا وَهِيَ كَفِلْقَةِ الْقَمَرِ تَتَلَأْلَأُ نُورًا يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ فَإِذَا أَعَادَهَا إلىٰ جيبه واستخرجها رَجَعَتْ إِلَىٰ صِفَتِهَا الْأُولَىٰ.

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشيء مِنْ ذَلِكَ بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَظْهَرَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ سِحْرٌ، وَأَرَادَ مُعَارَضَتَهُ بِالسَّحَرَةِ، فَأَرْسَلَ يَجْمَعُهُمْ مِنْ سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ ومن هم فِي رَعِيَّتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَدَوْلَتِهِ. (١)

○ موقف السحرة:

* **يقول ابن كثير:** يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ شَقَاءِ فِرْعَوْنَ وَكَثْرَةِ جَهْلِهِ وَقِلَّةِ عَقْلِهِ فِي تَكْذِيبِهِ بِآيَاتِ اللهِ وَاسْتِكْبَارِهِ عَنِ اتِّبَاعِهَا وَقَوْلِهِ لِمُوسَىٰ إِنَّ هَذَا الَّذِي جِئْتَ

(١) البداية والنهاية: (١/ ٢٩١).

بِهِ سِحْرٌ وَنَحْنُ نُعَارِضُكَ بِمِثْلِهِ ثُمَّ طَلَبَ مِنْ مُوسَىٰ أَنَّ يُوَاعِدَهُ إِلَىٰ وَقْتٍ مَعْلُومٍ وَمَكَانٍ مَعْلُومٍ وَكَانَ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ مَقَاصِدِ مُوسَىٰ عليه السلام أَنْ يُظْهِرَ آيَاتِ اللهِ وَحُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ جَهْرَةً بِحَضْرَةِ النَّاسِ ولهذا قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩] وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ مِنْ أَعْيَادِهِمْ وَمُجْتَمَعٍ لَهُمْ ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩] أَيْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فِي وَقْتِ اشْتِدَادِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ فَيَكُونُ الْحَقُّ أَظْهَرَ وَأَجْلَىٰ وَلَمْ يَطْلُبْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَيْلًا فِي ظَلَامٍ كَيْمَا يُرَوِّجُ عَلَيْهِمْ مِحَالًا وَبَاطِلًا بَلْ طَلَبَ أَنْ يَكُونَ نَهَارًا جَهْرَةً لِأَنَّهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَقِينٍ أَنَّ اللهَ سَيُظْهِرُ كَلِمَتَهُ وَدِينَهُ وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ الْقِبْطِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: ٦٠ - ٦٤].

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ ذَهَبَ فَجَمَعَ مَنْ كَانَ بِبِلَادِهِ مِنَ السَّحَرَةِ وَكَانَتْ بِلَادُ مِصْرَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَمْلُوءَةً سَحَرَةً فُضَلَاءَ، فِي فَنِّهِمْ غَايَةٌ، فَجَمَعُوا لَهُ مَنْ كُلِّ بَلَدٍ وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَاجْتَمَعَ مِنْهُمْ خُلُقٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِيرٌ، فَقِيلَ: كَانُوا ثَمَانِينَ أَلْفًا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ.

وَقِيلَ: سَبْعِينَ أَلْفًا قاله القاسم بن أبي بردة.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ: تِسْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا.

وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا.

وَرَوَىٰ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانُوا سَبْعِينَ رَجُلًا وَرَوَىٰ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُمْ كَانُوا أَرْبَعِينَ غُلَامًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَمَرَهُمْ فِرْعَوْنُ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَىٰ الْعُرَفَاءِ فَيَتَعَلَّمُوا السِّحْرَ وَلِهَذَا قَالُوا وَمَا أكرهتنا عليه من السحر وفي هذا نظر.

وَحَضَرَ فِرْعَوْنُ وَأُمَرَاؤُهُ وَأَهْلُ دَوْلَتِهِ وَأَهْلُ بَلَدِهِ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ.

وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ نَادَىٰ فِيهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا هَذَا الْمَوْقِفَ الْعَظِيمَ فَخَرَجُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٤٠].

وَتَقَدَّمَ مُوسَىٰ عليه السلام إِلَىٰ السَّحَرَةِ فَوَعَظَهُمْ وَزَجَرَهُمْ عَنْ تَعَاطِي السِّحْرِ الْبَاطِلِ الَّذِي فِيهِ مُعَارَضَةٌ لِآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ فَقَالَ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ٦١- ٦٢] قِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: هَذَا كَلَامُ نَبِيٍّ وَلَيْسَ بِسَاحِرٍ، وَقَائِلٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: بَلْ هُوَ سَاحِرٌ فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَأَسَرُّوا التَّنَاجِيَ بِهَذَا وَغَيْرِهِ ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه: ٦٣] يَقُولُونَ إِنَّ هَذَا وأخاه هرون سَاحِرَانِ عَلِيمَانِ مُطْبِقَانِ مُتْقِنَانِ لِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَمُرَادُهُمْ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا وَيَصُولَا عَلَىٰ الْمَلِكِ وَحَاشِيَتِهِ وَيَسْتَأْصِلَاكُمْ عَنْ آخِرِكُمْ وَيَسْتَأْمِرَا عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الصناعة ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤].

وَإِنَّمَا قَالُوا الْكَلَامَ الْأَوَّلَ لِيَتَدَبَّرُوا وَيَتَوَاصَوْا وَيَأْتُوا بِجَمِيعِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَكِيدَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالسِّحْرِ وَالْبُهْتَانِ.

وَهَيْهَاتَ كَذَبَتْ وَاللهِ الظُّنُونُ وَأَخْطَأَتِ الْآرَاءُ.

أَنَّىٰ يُعَارِضُ الْبُهْتَانُ.

وَالسِّحْرُ وَالْهَذَيَانُ.

خَوَارِقَ الْعَادَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا الدَّيَّانُ.

عَلَىٰ يَدَيْ عَبْدِهِ الْكَلِيمِ.

وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبُرْهَانِ الَّذِي يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ وَتَحَارُ فِيهِ الْعُقُولُ وَالْأَذْهَانُ وَقَوْلُهُمْ: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ [طه: ٦٤] أي جميع ما عندكم ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] أي جملة واحدة ثم حضوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَىٰ التَّقَدُّمِ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ وَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ وَمَا يعدهم الشيطان إلا غرورًا ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٥ - ٦٩].

لَمَّا اصْطَفَّ السَّحَرَةُ، وَوَقَفَ موسىٰ وهرون عليهما السلام تُجَاهَهُمْ قَالُوا لَهُ: إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ قَبْلَنَا، وَإِمَّا أَنْ نُلْقِيَ قَبْلَكَ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ﴾ [طه: ٦٦] أَنْتُمْ وَكَانُوا قَدْ عَمَدُوا إِلَىٰ حِبَالٍ وَعِصِيٍّ فَأَوْدَعُوهَا الزِّئْبَقَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي تَضْطَرِبُ بِسَبَبِهَا تِلْكَ الْحِبَالُ وَالْعِصِيُّ اضْطِرَابًا يُخَيَّلُ لِلرَّائِي أَنَّهَا تَسْعَىٰ بِاخْتِيَارِهَا.

وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٤].

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه: ٦٦- ٦٧] أَيْ خافٍ عَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يَفْتَتِنُوا بِسِحْرِهِمْ وَمِحَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَدِهِ فَإِنَّهُ لَا يَضَعُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ فِي السَّاعة الرَّاهنة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٨- ٦٩] فَعِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ وَقَالَ: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس: ٨١- ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢].

وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام لَمَّا أَلقاها صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً ذَاتَ قَوَائِمَ، فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلف، وَعُنُقٍ عَظِيمٍ وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ بِحَيْثُ إِنَّ النَّاسَ انْحَازُوا مِنْهَا وَهَرَبُوا سِرَاعًا وَتَأَخَّرُوا عَنْ مَكَانِهَا وَأَقْبَلَتْ هِيَ عَلَىٰ مَا

أَلْقَوْهُ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ فَجَعَلَتْ تَلَقَّفَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا فِي أَسْرَعِ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا.

وَأَمَّا السَّحَرَةُ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مَا هَالَهُمْ وَحَيَّرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ وَاطَّلَعُوا عَلَىٰ أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي خَلَدِهِمْ وَلَا بَالِهِمْ وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ صِنَاعَاتِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهُنَالِكَ تَحَقَّقُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِسِحْرٍ وَلَا شَعْبَذَةٍ، وَلَا مِحَالٍ وَلَا خَيَالٍ وَلَا زُورٍ وَلَا بُهْتَانٍ وَلَا ضَلَالٍ بَلْ حَقٌّ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَقُّ الَّذِي ابْتَعَثَ هَذَا الْمُؤَيَّدَ بِهِ بِالْحَقِّ وَكَشَفَ اللهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةَ الْغَفْلَةِ، وَأَنَارَهَا بِمَا خَلَقَ فِيهَا مِنَ الْهُدَىٰ وَأَزَاحَ عَنْهَا الْقَسْوَةَ، وَأَنَابُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ وَخَرُّوا لَهُ سَاجِدِينَ، وَقَالُوا جَهْرَةً لِلْحَاضِرِينَ وَلَمْ يَخْشَوْا عُقُوبَةً وَلَا بَلْوَىٰ ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠] كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٠ - ٧٦].

قَالَ سَعِيدُ بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة وَالْأَوْزَاعِيُّ وَغَيْرُهُمْ: لَمَّا سَجَدَ السَّحَرَةُ رَأَوْا مَنَازِلَهُمْ وَقُصُورَهُمْ فِي الْجَنَّةِ تُهَيَّأُ لَهُمْ وَتُزَخْرَفُ

لِقُدُومِهِمْ وَلِهَذَا لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ تَهْوِيلِ فِرْعَوْنَ وَتَهْدِيدِهِ وَوَعِيدِهِ.

وَذَلِكَ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَىٰ هَؤُلَاءِ السحرة قد أسلموا واشهروا ذكر موسىٰ وهرون فِي النَّاسِ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ الْجَمِيلَةِ، أَفْزَعَهُ ذَلِكَ، وَرَأَىٰ أَمْرًا بَهَرَهُ، وَأَعْمَىٰ بَصِيرَتَهُ وَبَصَرَهُ، وكان فيه كيد وَمَكْرٌ وَخِدَاعٌ، وَصَنْعَةٌ بَلِيغَةٌ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لِلسَّحَرَةِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣] أَيْ هَلَّا شَاوَرْتُمُونِي فِيمَا صَنَعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ بِحَضْرَةِ رَعِيَّتِي ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ وَأَبْرَقَ وَأَرْعَدَ وَكَذَبَ فَأَبْعَدَ قَائِلًا: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ فَرْدٍ عَاقِلٍ مَا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَذِبِ وَالْهَذَيَانِ بَلْ لَا يَرُوجُ مَثَلَهُ عَلَىٰ الصِّبْيَانِ فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ وَغَيْرِهِمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَرَهُ هَؤُلَاءِ يَوْمًا مِنَ الدَّهر فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرَهُمُ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحْرَ.

ثُمَّ هُوَ لَمْ يَجْمَعْهُمْ وَلَا عِلْمَ بِاجْتِمَاعِهِمْ حَتَّىٰ كَانَ فِرْعَوْنُ هُوَ الَّذِي اسْتَدْعَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ وَوَادٍ سَحِيقٍ وَمِنْ حَوَاضِرِ بِلَادِ مِصْرَ وَالْأَطْرَافِ وَمِنَ الْمُدُنِ وَالْأَرْيَافِ. (١)

وهكذا عجز فرعون أمام الحق، فلم يجد إلا الكذب والتلفيق والبطش

(١) البداية والنهاية: (١/ ٢٩٤/ ٢٩٧).

والتنكيل بأهل الحق الحماة، ولكنَّ الله أهلكه وجنده ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص: ٣٩ - ٤٢]، وصدق صاحب الموازين: حبس الحماة فلن يطول، ولن يدوم تعسف.

- وكذلك امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام، فإنها عجزت وانهزمت أمام الحق، ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٨]، ولكن حكموا عليه بالسجن قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ

لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يوسف: ٣٢ - ٣٥].

وبعد السجن خرج مرفوع الرأس موفور الكرامة، وهم من كانوا في احتياج له.

❍ حبس وحصار الرسول ﷺ ومن معه في شعب أبي طالب:

- إن المشركين جعلوا ميثاقًا هو ميثاق الظلم والعدوان، وذلك بأنهم اجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب فتحالفوا، علىٰ بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتىٰ يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق «أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتىٰ يسلموه للقتل» قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده. (١)

تم هذا الميثاق، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم- إلا أبا لهب- وحبسوا في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة.

❍ ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب:

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون

(١) زاد المعاد ٢/ ٤٦.

يتركون طعاما يدخل مكة ولا بيعا إلا بادروه فاشتروه، حتىٰ بلغهم الجهد، والتجأوا إلىٰ أكل الأوراق والجلود، وحتىٰ كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون (١) من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا- وكانوا- لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتىٰ لا يستطيعوا الشراء.

○ صور من واقع الحصار الاقتصادي:

* **قال السهيلي**: كانت الصحابة إذا قدمت عير إلىٰ مكة، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئًا من الطعام قوتا لعياله، فيقوم أبو لهب، فيقول: يا معشر التجار، غالوا علىٰ أصحاب محمد ﷺ حتىٰ لا يدركوا معكم شيئًا، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن، لا خسارة عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتىٰ يرجع أحدهم الىٰ أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يطعمهم به، ويغدو التجار علىٰ أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتىٰ جهد المؤمنون ومن معهم جوعًا وعريًا.

وعن سعد بن أبي وقاص قال: خرجت ذات ليلة لأبول، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها، ورضضتها بالماء، فقويت بها ثلاثًا. (٢)

---

(١) ضغا من الجوع: صاح.
(٢) الرحيق المختوم مع زيادات (ص: ٦٥: ٦٦).

- ومما يلفت النظر أن سورة يوسف قد نزلت أيام حصار المسلمين في شعب أبي طالب.. نزلت لتؤكد لهم أن الناصر هو الله، وأنه سبحانه يريد منهم تعلقًا تامًا به، وعدم التعلق بالناس، واليأس منهم في أنهم يملكون كشف الضر، وتفريج الكرب، والسورة كذلك نزلت لتؤكد أن الذي مكَّن يوسف عليه السلام هو الله ﷻ، وأن الذي حرك الأحداث في اتجاه هذا التمكين هو الله ﷻ ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٠]. (١)

وبعد الحصار جاء الفرج، وتغيرت الأمور ونصر الله رسوله الأمين.

وهنا نقول: إن الظالم يفعل الإيذاء بالسجن، ظنًّا منه أنه يعاقب السجين بهذا الضيق، ولكن نجد أن الصالحين لا يعبؤون بهذا إذا كان في سبيل الله وهم يتأسون في هذا برسل الله الذين ذاقوا هذا البلاء، وصدق من قال: السجن الحقيقي هو حبس القلب يقول ابن تيمية: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالىٰ، والمأسور من أسره هواه. (٢)

ويقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

(١) صبرًا آل ياسر: (ص: ٧).
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: ٤٨).

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال ما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. (١)

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله.

ولما دخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣] وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها. (٢)

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: ٤٨).
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: ٤٨).

- ولو أردنا ضرب الأمثلة سيطول بنا الكلام، ولكن أختم حديثي حول هذه النقطة بقول رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**».(١)، ولفظ مسلم: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**».(٢)

فإذا كانت المرأة عُذِّبت من أجل قطة، فكيف بمن سلب حق إنسان، وهو حق الحرية، وحرمه من حقوقه التي منحها الله له.

يقول ابن القيم: وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلَتِ النَّارَ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعًا وَعَطَشًا، فَرَآهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّارِ وَالْهِرَّةُ تَخْدِشُهَا فِي وَجْهِهَا وَصَدْرِهَا، فَكَيْفَ عُقُوبَةُ مَنْ حَبَسَ مُؤْمِنًا حَتَّىٰ مَاتَ بِغَيْرِ جُرْمٍ؟. (٣)

وهنا يأتي سؤال لماذا يترك الله الظالمين يؤذون الناس، ويسلبونهم حقوقهم؟

والجواب عن هذا السؤال في كلمات قليلة موجزة:

إن الله يريد أن يبلغ الظالم أعلىٰ مراتب الظلم حتىٰ لا يفلت من عقاب الله قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ

(١) صحيح البخاري: (٣٣١٨).
(٢) صحيح مسلم: (٢٢٤٢).
(٣) الداء والدواء: (ص: ١٥٠).

طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وعَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**». (٢)

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا**

(١) صحيح البخاري: (٤٦٨٦).
(٢) صحيح البخاري: (٦٥٣٤).

تَظَالَمُوا». (١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ**»؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**». (٢)

لَا تظلمن إذا مَا كنت مقتدرًا ... فالظلم يرجع عقباه إِلَىٰ النَّدَم
تنام عَيْنَاك والمظلوم منتبه ... يَدْعُو عَلَيْك وَعين الله لم تنم (٣)

ثم يقول صاحب الموازين:

وَعْدُ الْإِلَهِ لِحَقِّهِ ... إِظْهَارُهُ فَلْتَعْرِفُوا

وهنا لنا وقفة: خصوصًا وأن فضيلة الدكتور استشهد بآية من بين الآيات توضح هذا المعنىٰ بوضوح تام، وتبين أن الله سبحانه وعد وعدًا وهو أن دينه سيظهر علىٰ الدين كله، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨- ٩].

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٧٧).
(٢) سنن الترمذي: (٢٤١٨). والسلسلة الصحيحة: (٨٤٧)، وصحيح الجامع: (٤٠).
(٣) الكبائر للذهبي: (ص: ١٠٥).

- وانطلاقًا من هذه الآية الكريمة نقف مع مبشرات تطمئن القلوب، وتذكرها بموعود الله سبحانه وتعالىٰ.

- لما توسع ﷺ بالفتوحات وبدأ ينتشر الإسلام..

جعل ﷺ يرسل الدعاة من عنده لدعوة القبائل إلىٰ الإسلام.. وربما احتاج الأمر أن يرسل جيشًا..

وكان عدي بن حاتم الطائي.. ملكًا ابن ملك..

فوقع بين قبيلته «طي» وبين المسلمين حرب.. وكان عدي قد هرب من الحرب فلم يشهدها.. واحتمىٰ بالروم في الشام..

وصل جيش المسلمين إلىٰ ديار طيء..

كانت هزيمة طيء سهلة.. فلا ملك يقود.. ولا جيش مرتب..

وكان المسلمون في حروبهم.. يحسنون إلىٰ الناس.. ويعطفون وهم في قتال..

كان المقصود صد كيد قوم عدي عن المسلمين.. وإظهار قوة المسلمين لهم..

أسر المسلمون بعض قوم عدي.. وكان من بينهم أخت لعدي بن حاتم..

مضوا بالأسرىٰ إلىٰ المدينة.. حيث رسول الله ﷺ.. وأخبروا النبي ﷺ بفرار عدي إلىٰ الشام..

فعجب ﷺ من فراره!! كيف يفر من الدين؟ كيف يترك قومه؟

ولكن لم يكن إلىٰ الوصول إلىٰ عدي سبيل..

لم يطب المقام لعدي في ديار الروم.. فاضطر للرجوع لديار العرب.. ثم لم يجد بدًا من أن يذهب إلىٰ المدينة للقاء النبي ﷺ ومصالحته.. أو التفاهم علىٰ شيء يرضيهما.. (١)

يقول عدي وهو يحكي قصة ذهابه إلىٰ المدينة:

ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ مني..

وكنت علىٰ دين النصرانية..

وكنت ملكًا في قومي لما كان يصنع بي.

فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته كراهية شديدة..

فخرجت حتىٰ قدمت الروم علىٰ قيصر..

قال: فكرهت مكاني ذلك..

فقلت: والله لو أتيت هذا الرجل.. فإن كان كاذبًا لم يضرني.. وإن كان صادقًا علمت..

فقدمت فأتيته.. فلما دخلت المدينة جعل الناس يقولون: هذا عدي بن حاتم.. هذا عدي بن حاتم..

فمشيت حتىٰ أتيت فدخلت علىٰ رسول الله ﷺ في المسجد فقال لي: عدي بن حاتم؟

(١) وقيل إن أخته هي التي ذهبت إليه في الشام وردته إلىٰ العرب.

قلت: عدي بن حاتم..

فرح النبي ﷺ بمقدمه.. واحتفىٰ به.. مع أن عديًا محارب للمسلمين وفارٌ من الحرب.. ومبغض للإسلام.. ولاجئٌ إلىٰ النصارىٰ.. ومع ذلك لقيه ﷺ بالبشاشة والبشر.. وأخذ بيده يسوقه معه إلىٰ بيته..

عدي وهو يمشي بجانب النبي ﷺ يرىٰ أن الرأسين متساويان..!!

فمحمد ﷺ ملك علىٰ المدينة وما حولها.. وعدي ملك علىٰ جبال طي وما حولها..

ومحمد ﷺ علىٰ دين سماوي «الإسلام».. وعدي علىٰ دين سماوي «النصرانية»..

ومحمد ﷺ عنده كتاب منزل «القرآن».. وعدي عنده كتاب منزل «الإنجيل»..

كان عدي يشعر أنه لا فرق بينهما إلا في القوة والجيش..

في أثناء الطريق وقعت ثلاثة مواقف:

بينما هما يمشيان إذا بامرأة قد وقفت في وسط الطريق فجعلت تصيح: يا رسول الله.. لي إليك حاجة..

فانتزع النبي ﷺ يده من يد عدي ومضىٰ إليها.. وجعل يستمع إلىٰ حاجتها..

عدي بن حاتم.. الذي قد عرف الملوك والوزراء جعل ينظر إلىٰ هذا المشهد.. ويقارن تعامل النبي ﷺ مع الناس بتعامل من رآهم من قبل من

الرؤساء والسادة..

فتأمل طويلًا ثم قال: والله ما هذه بأخلاق الملوك.. هذه أخلاق الأنبيااااء..

وانتهت المرأة من حاجتها.. فعاد النبي ﷺ إلىٰ عدي.. ومضيا يمشيان.. فبينما هما كذلك.. فإذا برجل يقبل علىٰ النبي ﷺ..

فماذا قال الرجل؟ هل قال: يا رسول الله عندي أموال زائدة أبحث لها عن فقير؟! أم قال: حصدت أرضي وزاد عندي الثمر.. فماذا أفعل به؟

يا ليته قال شيئًا من ذلك.. لعل عديًّا إذا سمعه يشعر بغنىٰ المسلمين وكثرة أموالهم..

قال الرجل: يا رسول الله.. أشكو إليك الفاقة والفقر..

ما يكاد هذا الرجل يجد طعامًا يسد به جوعة أولاده.. ومن حوله من المسلمين يعيشون علىٰ الكفاف ليس عندهم ما يساعدونه به..

قال الرجل هذه الكلمات وعدي يسمع.. فأجابه النبي ﷺ بكلمات ومضىٰ..

فلما مشيا خطوات.. أقبل رجل آخر.. قال: يا رسول الله أشكو إليك قطع الطريق!!

يعني أننا يا رسول الله لكثرة أعدائنا حولنا لا نأمن أن نخرج عن بنيان المدينة لكثرة من يعترضنا من كفار أو لصوص..

أجابه النبي ﷺ بكلمات ومضىٰ..

جعل عدي يقلب الأمر في نفسه.. هو في عز وشرف في قومه.. وليس له أعداء يتربصون به..

فلماذا يدخل هذا الدين الذي أهله في ضعف ومسكنة.. وفقر وحاجة..

وصلا إلىٰ بيت النبي ﷺ.. فدخلا.. فإذا وسادة واحدة فدفعها النبي ﷺ إلىٰ عدي إكرامًا له.. وقال: «**خذ هذه فاجلس عليها**». فدفعها عدي إليه قال: بل اجلس عليها أنت.. فقال ﷺ: «**بل أنت**». حتىٰ استقرت عند عدي فجلس عليها..

عندها.. بدأ النبي ﷺ يحطم الحواجز بين عدي والإسلام..

«**يا عدي أسلم.. تسلم.. أسلم تسلم.. أسلم تسلم**».

قال عدي: إني علىٰ دين..

فقال ﷺ: «**أنا أعلم بدينك منك**».

قال: أنت تعلم بديني مني؟

قال: «**نعم.. ألست من الركوسية**».

والركوسية ديانة نصرانية مشرّبة بشيء من المجوسية.. فمن مهارته ﷺ في الإقناع أنه لم يقل ألست نصرانيًّا.. وإنما تجاوز هذه المعلومة إلىٰ معلومة أدق منها فأخبره بمذهبه في النصرانية تحديدًا..

كما لو لقيك شخص في أحد بلاد أوروبا وقال لك: لماذا لا تتنصر؟ فقلت: إني علىٰ دين..

فلم يقل لك: ألست مسلمًا.. ولم يقل: ألست سنّيًّا.. وإنما قال: ألست

شافعيًّا.. أو حنبليًّا..

عندها ستدرك أنه يعرف كل شيء عن دينك..

فهذا الذي فعله المعلم الأول ﷺ مع عدي .. قال: «**ألست من الركوسية**».

فقال عدي: بلىٰ..

فقال ﷺ: «**فإنك إذا غزوت مع قومك تأكل فيهم المرباع؟**»(١)

قال: بلىٰ..

فقال ﷺ: «**فإن هذا لا يحل لك في دينك**».

فتضعضع لها عدي.. وقال: نعم..

فقال ﷺ: «**أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام**».

أنك تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم..

وقد رمتهم العرب..

«**يا عدي.. أتعرف الحيرة؟**» (٢)

قلت: لم أرها وقد سمعت بها..

قال: «**فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتىٰ تخرج الظعينة من**

(١) المرباع: إذا غزت القبيلة قسم رئيسها الغنيمة أربعة أقسام فأخذ الربع له وحده، وهذا حرام في دين النصرانية، جائز عند العرب.
(٢) الحيرة: مدينة بالعراق.

الحيرة حتىٰ تطوف بالبيت في غير جوار أحد».

أي سيقوىٰ الإسلام إلىٰ درجة أن المرأة المسلمة الحاجة تخرج من الحيرة حتىٰ تصل إلىٰ مكة ليس معها إلا محرم.. من غير أحد يحميها.. وتمر علىٰ مئات القبائل فلا يجرؤ أحد أن يعتدي عليها أو يسلبها مالها.. لأن المسلمين صار لهم قوة وهيبة.. إلىٰ درجة أن أحدًا لا يجرؤ علىٰ التعرض لمسلم خوفًا من انتصار المسلمين له..

فلما سمع عدي ذلك.. جعل يتصور المنظر في ذهنه.. امرأة تخرج من العراق حتىٰ تصل إلىٰ مكة.. معنىٰ ذلك أنها ستمر بشمال الجزيرة.. يعني ستمر بجبال طي.. ديار قومه..

فتعجب عدي وقال في نفسه: فأين عنها ذُعّار طي الذين سعروا البلاد!!

ثم قال ﷺ: «**وليفتحن كنوز كسرىٰ بن هرمز**».

قال: كنوز ابن هرمز؟

قال: «**نعم كسرىٰ بن هرمز.. ولتنفقن أمواله في سبيل الله**»..

قال ﷺ: «**ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه**»..

يعني من كثرة المال يخرج الغني يطوف بصدقته لا يجد فقيرًا يعطيه إياها..

ثم بدأ ﷺ يعظ عديًا ويذكره بالآخرة.. فقال:

«**وليلقين اللهَ أحدُكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عن يمينه**

فلا يرىٰ إلا جهنم، وينظر عن شماله فلا يرىٰ إلا جهنم»..

سكت عدي متفكرًا..

ففاجأه ﷺ قائلًا: «**يا عدي.. فما يفرك أن تقول لا إله إلا الله؟.. أو تعلم من إله أعظم من الله؟!**»

قال عدي: فإني حنيف مسلم.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله..

فتهلل وجه النبي ﷺ فرحًا مستبشرًا..

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار.. ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرىٰ..

والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها».(١)

---

(١) نقلًا عن استمتع بحياتك. (ص: ١٣: ١٨). وحديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رواه أحمد وهذا لفظه إتمامًا للفائدة: عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ رَجُلٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ، قَالَ: نَعَمْ، لَمَّا بَلَغَنِي خُرُوجُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَرِهْتُ خُرُوجَهُ كَرَاهَةً شَدِيدَةً، خَرَجْتُ حَتَّىٰ وَقَعْتُ نَاحِيَةَ الرُّومِ، وَقَالَ يَعْنِي يَزِيدَ بِبَغْدَادَ، حَتَّىٰ قَدِمْتُ عَلَىٰ قَيْصَرَ، قَالَ: فَكَرِهْتُ مَكَانِي ذَلِكَ أَشَدَّ مِنْ كَرَاهِيَتِي لِخُرُوجِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ، لَوْلَا أَتَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ يَضُرَّنِي، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَلِمْتُ، قَالَ: فَقَدِمْتُ فَأَتَيْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْتُ قَالَ النَّاسُ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِي: «**يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**» ثَلَاثًا، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي عَلَىٰ دِينٍ، قَالَ: «**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**» فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ: «**نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟**» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «**فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ**»، قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا، فَتَوَاضَعْتُ لَهَا، فَقَالَ: «**أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ**
⇦=

قلت: (محمد): ولقد حدثت الثالثة في زمان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، فقد كان الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه. وليكونن ذلك في زمان الإمام المهدىٰ كما أخبرنا رسول الله ﷺ.

✍ **وصدق صاحب الموازين حيث قال:**

وَعْـــــدُ الْإِلَـــــهِ لِحَقِّـــــهِ ... إِظْهَـــــارُهُ فَلْتَعْرِفُـــــوا

- ولكن من هم الذين يستحقون هذا الوعد؟

هذا ما أستعين بربي وأوضحه في الصفحات التالية مستندًا ومستدلًا بما بقي من الآيات التي استشهد بها صاحب الموازين حفظه الله، حيث استشهد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١- ٥٢]، وبقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:

= النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّىٰ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ» قَالَ: قُلْتُ: كِسْرَىٰ بْنُ هُرْمُزَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، كِسْرَىٰ بْنُ هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّىٰ لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: «فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ، فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا».

٢٠- ٢١].

- إن هذه الآيات وأمثالها تشير إلىٰ نصر الله وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون علىٰ الدعوة ويتحملون المشاق في سبيلها سواء كان الداعية رسولًا كريمًا أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار والتمكين يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

ونجد في القرآن الكريم والسنُّة النبوية المطهرة، أن من الأنبياء من قتله أهل الكفر والشرك، كيحيي وزكريا عليهما السلام وغيرهما، ومنهم من حاول قومه قتله إلا أن الله نجاه منهم كنبينا محمد وعيسىٰ ابن مريم عليهما السلام، وكإبراهيم الذي ترك قومه وعشيرته مهاجرًا إلىٰ الشام، ونجد من أهل الإيمان علىٰ مر العصور ومر الدهور من يسام سوء العذاب وفيهم من يلقىٰ في خدود الأرض المليئة بالنيران المحرقة، ومنهم من يقتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر والظفر والتمكين؟ وقد طُردوا أو قتلوا أو عذبوا؟ (١)

○ شروط التمكين وأسبابه:

إن الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمنًا، وعد من الله تعالىٰ متىٰ حقق المسلمون شروطه.

ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلىٰ شروط التمكين، ولوازم الاستمرار فيه.

(١) انظر: حقيقة الانتصار، ص (١٣، ١٤).

قال تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: ٥٥- ٥٦].

✍ **لقد أشارت الآيات الكريمة إلىٰ شروط التمكين وهي:** (١)

١- الإيمان بكل معانيه وبكل أركانه.

٢- ممارسة العمل الصالح، بكل أنواعه، والحرص علىٰ كل أنواع الخير وصنوف البر.

٣- تحقيق العبودية الشاملة.

٤- محاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه.

✍ **وأما لوازم استمرار التمكين فهي:**

١- إقامة الصلاة.

٢- إيتاء الزكاة.

٣- طاعة الرسول ﷺ.

وأما ما يتعلق بأسباب التمكين:

فقد أمر الله تعالىٰ بالإعداد الشامل في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

(١) سأتكلم في نقاط مختصرة فقط، لأنني لو فصلت في هذه الأمور سأحتاج إلىٰ مؤلف مستقل، وليس المقام مقام تفصيل في هذا، ولعل الله يبسط فتبسط في موضع آخر.

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب، فالإعداد المطلوب من خلال مفهوم الآية إعداد شامل؛ لأن كلمة قوة جاءت نكرة في سياق الأمر، فيشمل الآتي:

١- قوة العقيدة والإيمان.

٢- قوة الصف والتلاحم.

٣- قوة السلاح والساعد.

إن الآية الكريمة تفتح أذهان المسلمين علىٰ الإعداد الشامل؛ المعنوي والمادي، العلمي والفقهي علىٰ مستوىٰ الأفراد والجماعات، وتدخل في طياتها الإعداد التربوي والسلوكي والإعداد المالي، والإعلامي والسياسي والأمني، والعسكري.... إلخ.

***

في مرحلة الإعداد والتربية يهتم المشرفون عليها من الدعاة بصفات جيل التمكين ويعملون علىٰ غرسها في نفوس العناصر التي اختيرت لهذه المرحلة؛ لعلمهم اليقيني أن لجيل التمكين صفات خاصة، تميزه عن غيره من الأجيال وسمات يعرف بها، ذلك أنه الجيل الذي يعد ليكون مؤهلا لنصر الله وسببا لإعادة مجد الأمة التي اختارها الله لإعلاء كلمته ونصر دينه وعقيدته، وعندما تبرز صفات جيل التمكين في جيل يكون مؤهلًا للتغلب علىٰ التحديات التي تواجهه سواء كانت محلية، أو كانت داخلية، أو كانت عالمية، ويمكننا تقسيم صفات جيل التمكين إلىٰ: صفات إيمانية، صفات سلوكية أخلاقية، صفات حركية ودعوية، صفات نفسية.

١ - صفات إيمانية:

١ - **ربانية وإخلاص:** أي أنهم مخلصون لله رب العالمين، فإذا جاءتهم الدنيا جعلوها في أيديهم ولم يدخلوها في قلوبهم، لا يعبدون الأشخاص، ولا الأهواء، ولا الطاغوت أيا كان فقد تبين لهم الرشد من الغي، فكفروا بالطاغوت وآمنوا بالله وحده فاستمسكوا بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها.

٢ - **الشعور بمعية الله** ﷻ: وهذا الشعور يدفع العبد المؤمن إلىٰ الصدع بالحق ويطلق صاحبه الجبن والخوف والهلع، ويحدث في النفس انقلابا نفسيا في حياة الداعية، ولنتذكر حين ﴿ تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٢].

٣ - **غرباء في هذه الدنيا:** إن هذا الصنف هو الذي أشار إليه رَسُولُ اللهِ ﷺ حين قَالَ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ**».(١)

وفي لفظ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَنَّةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**».(٢)

والمسلم إذا شرح الله صدره للإسلام وملأ قلبه بالإيمان يستسهل كل صعب ويستعذب كل كدر، إن هذا الغريب يرسل للناس من الأشعة الهادية ما ينير لهم الطريق، فهي ليست غربة عزلة وفرار، ولكنها غربة رفعة وسمو وحرص علىٰ إيصال دعوته للجميع، فهو لا يعيش في برج عاج بعيدًا عن الناس، بل يتفاعل معهم ويحمل همومهم ويعاونهم في حل مشاكلهم، فالناس جزء منه وهو جزء منهم فلا يتصور أن يتعالىٰ عليهم.

٤ - **طلاب آخرة:** لعلمهم بأن متاع الدنيا قليل وبأنه ينتهي ويزول ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧] ولذلك تنشئ سعة في نفوسهم، ورقة في مشاعرهم، وتحررا من المادة وظلامها.

٥ - **أوابون توابون:** ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟

(١) صحيح مسلم: (١٤٥).
(٢) مسند أحمد: (٢٧/ ٢٣٧).

ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وهذه مفاهيم إيمانية يجب أن تعيشها الأمة:

١- اليقين والثقة بمنهج الله وهو الحق وما عداه باطل.

٢- الوعي بدورها ومهمتها وهي الشهادة علىٰ العالمين ولن تتحقق إلا بالعيش مع الكتاب والسنة.

٣- اليقين بضخامة الأجر وعظم المنزلة المترتبة علىٰ القيام بالشهادة.

٤- اليقين بنصر الله وأنه لابد آت.

٥- اليقين بأن نصر الله لا يتنزل جزافا.

٢ - صفات سلوكية وأخلاقية:

ولابد لجيل التمكين من صفات أخلاقية سلوكية يجب أن يتحلىٰ بها ومن أبرزها:

١ - **الصدق:** وهو سلوك وصف الله ﷻ به أنبياءه عليهم السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤]، واتصف به حبيبنا ﷺ حتىٰ قبل بعثته، ووصف به ربنا سبحانه الرجال، فقال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ ...﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٢ - **الصبر:** خلق وصف الله تعالىٰ به الدعاة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ ...﴾ [السجدة: ٢٤] وهو خلق لازم للداعية ويكفي

أن يعلم الداعية جزاء الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

ولنا في قدوتنا ﷺ أسوة حسنة في صبره علىٰ أهل مكة وما لاقاه عند عودته من الطائف وغيرها.

٣ - **الحب والإيثار:** وأعلىٰ مراتب الحب الإيثار وأدناها سلامة الصدر، وأن يكون لإخوانه كالبنيان يشد بعضه بعضا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

٤ - **العطاء والبذل والجود:** وهي صفة بارزة في حياة المؤمن فهي قاعدة المجتمع المؤمن المتكافل المتضامن، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَىٰ الْفَاقَةَ». (١)

ونعم العطاء هذا الذي يجعل البعض يحب الإسلام وأهله ويفتح الأبواب الموصدة والقلوب المغلقة، إن الإيثار علىٰ النفس مع الحاجة قمة عليا يجب لمن وصل إلىٰ مرحلة الإعداد والتربية أن يكون له فيها نصيب كبير.

(١) صحيح مسلم: (٢٣١٢).

ومراتب الجود والإيثار كثيرة منها:

- الجود بالنفس وهو أعلىٰ المراتب.

- الجود بالعلم وبذله.

- الجود بالنفع بالجاه كالمشي في قضاء مصالح المسلمين.

- الجود بالصبر والاحتمال.

- الجود بالراحة فيتعب في قضاء مصالح غيره.

- الجود بترك ما في أيدي الناس لهم، فلا يلتفت إليه بقلبه ولا يتعرض له بحاله ولا بلسانه وغير ذلك من أنواع الجود.

٥ - **العفة والاستغناء عن الناس:** إنه جيل مرتبط بالله ﷻ لا يعمل إلا لله، ولا يسأل إلا الله، فهو غني بالله ولذلك امتلأت نفوسهم عفة لا يتطلعون إلا إلىٰ فضل الله ولا يرجون إلا رحمة الله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

٣ - الصفات الحركية والدعوية:

١ - يجب أن يتولد لدى جيل التمكين شعور ذاتي بمسئولية العمل للإسلام:

واستعداد كامل لتلبية حاجات هذه المسئولية من النفس والجهد، فهو لا ينتظر التكليف الحركي لينهض بالأعباء والمسئوليات، وإنما يتولد في أعماقه شعور بالمسئولية ويجري في عروقه إحساس رباني بالتكليف.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما التزم بالإسلام تفجرت فيه الذاتية الحركية فذهب إلىٰ بلال بن رباح، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن

عفان والزبير بن العوام، ودعاهم للإسلام فأسلموا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصة مؤمن آل فرعون وكيف قام بدعوة قومه إلىٰ الإيمان بدعوة موسىٰ عليه السلام.

٢ - **يؤمن بالواقعية والعملية:** فهو بعيد عن الغوغائية ويحتكم إلىٰ الحقائق لا إلىٰ الأوهام، ولا ينسىٰ وهو يتطلع إلىٰ السماء أنه واقع علىٰ الأرض، فلا يجري وراء خيال كاذب ولا أماني موهومة فيسبح في غير ماء، ويطير بغير جناح، جيل كبير الآمال ولكنه واقعي التفكير، ولا ييأس من روح الله ولا يقنط من رحمة ربه لكنه يعرف حدود قدراته، ودوائر إمكاناته، يراعي سنن الله في كونه كما يراعي أحكامه في شرعه ويتبنىٰ سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، يؤمن بالعلم ويحترم العقل، ولا يتبع الظن وما تهوىٰ الأنفس، ويرفض الخرافة.

٣ - **جيل عمل وبناء جماعي:** فلا يقف أبناؤه عند التغني بأمجاد الماضي، ولا عند النواح علىٰ هزائم الحاضر، ولا عند التمني لانتصارات المستقبل، إنما يؤمن بالعمل والعطاء والإنتاج، وأن الإيمان الحق ما وقر في القلب وصدقه العمل، وما خلق الله الناس إلا ليعملوا بل ما خلقهم إلا ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقد علموا من حقائق التاريخ وقراءة الواقع أن أهل الباطل يتكتلون حول باطلهم فأولىٰ بأهل الحق أن يتجمعوا حول حقهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

لهذا صمموا علىٰ أن يبحثوا علىٰ أشباههم ممن ينشدون الحق

ويرفضون الباطل، ويدعون إلىٰ الخير وينكرون الشر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فمضوا في طريق العمل الجماعي يعملون في صمت، ويبنون في صبر ويجاهدون بلا كلل، ولا ملل، وعزموا علىٰ أن يكونوا متعاونين علىٰ البر والتقوىٰ متكاتفين في السراء والضراء.

٤ - **جيل دعوة وجهاد:** كما كان الصحابة من المهاجرين والأنصار لا يشغلهم جهاد عن جهاد ولا ميدان عن ميدان، فهم دائما في صراع متواصل، لا يلقون سلاحهم ولا يستريحون من كفاحهم حتىٰ لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. يجاهدون في سبيل الله في كل معركة تطلبهم وبكل سلاح يمكنهم.

٥ - **جيل توازن واعتدال:** فهم متوازنون معتدلون علىٰ صراط مستقيم لا يميلون إلىٰ اليمين ولا ينحرفون إلىٰ الشمال، لا يغرقون في الماديات ولا يغرقون في الروحانيات، يعلمون أن لربهم عليهم حقا وأن لأنفسهم عليهم حقا، وأن لأسرهم عليهم حقا، ولمجتمعهم عليهم حقًّا، فهم يعطون كل ذي حق حقه، غير جانحين إلىٰ الإفراط ولا مائلين إلىٰ التفريط، يأخذون بالعزائم ولا يغفلون الرخص، فإن الله يحب أن تؤتىٰ رخصه كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه.. يبشرون ولا ينفرون، وييسرون ولا يعسرون، ويجادلون بالتي هي أحسن ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]. يفرقون بين الأصول والفروع، والكليات والجزئيات، والقضايا المصيرية والمسائل الجانبية، ويمزجون بين الروح والمادة، والعقل والقلب، وبين الثبات علىٰ الغايات والتطور في الأساليب،

بين أداء الواجبات وطلب الحقوق، بين الحرص علىٰ القديم والاستفادة من الجديد، فلا ينقطعون عن الماضي ولا ينعزلون عن الحاضر، فرسان بالنهار ورهبان بالليل، لا تلهيهم نافلة عن فريضة ولا فرض عن مثله.

٦ - **جيل منضبط:** يعيش جو الانطلاقة بضوابطه فيتحرك بدعوته وفكره بين الناس مراعيا الضوابط الحركية حتىٰ لا تكون حركة غوغاء، ولا تمنعه الطاعة من إبداء آرائه في جو من الصراحة والوضوح وتتسع صدوره لآراء المخالفين، ولا يجد غضاضة في التنازل عن رأيه إذا استقر رأي الشورىٰ علىٰ رأي آخر، يعرف ما الذي يعلن من دعوته فلا يتردد في الجهر به وتعليمه للناس، وما الذي يسر فلا يبوح به ولا لأقرب الناس إليه.

٤ - الصفات النفسية:

✍ **من الصفات النفسية التي يجب أن يتحلىٰ بها جيل التمكين:**

١ - **إرادة قوية لا يتطرق إليها لين ولا ضعف:** يقول تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ومن مظاهرها:

- معرفة الهدف والإصرار علىٰ تحقيقه والوفاء له.
- الهمة العالية والعمل الدائب المتواصل.
- محاسبة النفس بشدة والانتصار عليها.
- مخالطة الناس والصبر علىٰ أذاهم.
- الصبر وتحمل المشاق والصعاب والتغاضي عن الهفوات.

- الصراحة في الحق والانصياع له والاعتراف بالخطأ وعدم إفشاء السر.

- استشراف الأمل وعدم اليأس وسياسة النفس الطويل.

٢ - **تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل:** ومن مظاهر التضحية العزيزة:

- وضع الدعوة في قمة الأولويات مع استصحاب نية التضحية.

- القدوة في بذل العزيز علىٰ النفس (المال - الراحة - النفس - فراق الأهل...).

- تربية من يعولهم علىٰ البذل والعطاء والتضحية.

- ربط المصير بالمصير وأن يوطن ظروفه مع ظروف الدعوة.

- تخليص النفس من كل مظاهر الطمع والبخل.

- تقديم مصلحة الدعوة علىٰ المصلحة الفردية.

- الاستعداد الكامل لتنفيذ الأمر علىٰ أي حال وتحت أي ظرف.

٣ - **وفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر:**

❍ **ومن أنواع الوفاء:**

وفاء مع الله - مع الدعوة - مع الإخوة - مع النفس - مع الناس.

❍ **ومن مظاهر الوفاء الثابت:**

- الاعتراف بالجميل وتوريث الدعوة وفتح مجالات عمل جديدة.

- الاستمرارية في العمل حتىٰ في أحلك الظروف.

- المصارحة والنصيحة بآدابها الشرعية.
- حمل الأهل والأقارب علىٰ احترام الدعوة والتحمس لها.
- تفقد الغائب والشعور بآلام الآخرين.
- إيثار المصلحة الدعوية علىٰ المصلحة الفردية.
- الذب والدفاع عن الإسلام وقياداته وعلمائه.

٤ - **ومعرفة بالمبدأ وإيمان به** وتقدير له يعصم من الخطأ فيه أو الانحراف عنه أو المساومة عليه أو الخديعة بغيره:

- إخلاص الوجهة لله وتصحيح النية دائما.
- وضوح الهدف وطبيعة الطريق وكيفية الوصول إلىٰ الأهداف.
- استشعار ثقل الأمانة والتبعة الملقاة علىٰ الدعاة.
- التمسك بالقرآن والسنة وفهم السلف الصالح.
- العمل الجاد والمتواصل الذي يؤدي إلىٰ أفضل النتائج بأقل مجهود.
- عدم الاجتهاد في الثوابت.
- محاسبة النفس واتهامها عند الاختلاف.

٥ - **الاتزان النفسي «الانفعالي»**: وهي صفة مهمة يجب أن يتصف بها صاحب الشخصية السوية المتزنة، ومن أهم مظاهر الاتزان النفسي:

- الثقة بالله ﷻ وفي نصره وتأييده لأوليائه وحسن التوكل عليه.
- ملك النفس عند الغضب.

- العاطفة المتزنة.

- وضع الأمور في نصابها وحجمها دون تضخيم ولا تصغير.

- البعد عن الحساسية المفرطة وأن يؤخذ الكلام علىٰ أحسن محمل.

- الانضباط والكتمان وعدم الثرثرة.

- البعد عن الانطوائية.

ذلكم هو الجيل الذي ننشده وتنشده معنا الأمة بكاملها، وهو الجيل الذي تعمل القوىٰ العالمية علىٰ إجهاضه، وشغله عن معاركه ومعارك أمته الكبرىٰ بمعارك جانبية تافهة، وإغراقه في دوامة من الجدل لا يخرج منها، إن هذا الجيل هو جيل النصر الذي تتحرر علىٰ يديه كل أرض دنسها الطواغيت والفجار، هو الذي ترتفع به راية الله في أرض الله، هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر الله ﷻ، عندما كانت صفات جيل التمكين متمكنة في الجيل الإسلامي الأول استطاع ذلك الجيل:

- أن يحرر الجزيرة العربية من دنس الصهيونية في بني النضير وبني المصطلق وبني قينقاع وخيبر.

- أن يستأصل شأفة الوثنية في بدر والأحزاب وفتح مكة.

- أن ينكس رايات الصهيونية في اليرموك وحطين.

- أن يهزم المجوسية في القادسية. (١)

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن: (١/ ٤٥٥/ ٤٤٦). بتصرف واختصار.

وختامًا أقول: قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١] [غافر: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ [المجادلة: ٢١].

- الله تبارك وتعالىٰ هو الناصر، الذي ينصر رسله وأنبياءه وأتباعهم علىٰ أعدائهم، ويثبت أقدامهم عند لقاء عدوهم، ويلقي الرعب في قلوب أعدائهم.

- وهو سبحانه النصير، الذي ينصر أولياءه، الذي لا يخذل وليه، ولا يسلمه لأعدائه.

- وهو ﷻ الناصر والنصير لعباده المؤمنين، الذي ينصر من يشاء، في أي وقت شاء، والنصر منه وحده، والمنصور من نصره الله، والمخذول من خذله الله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

- فهو سبحانه الناصر لأهل الإيمان، فلو اجتمع عليهم أهل الأرض جميعًا وما عندهم من العُدد والعَدد نصر الله المؤمنين عليهم، لأن الله لا غالب له، فهو الذي قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم، وإذا أراد أن يخذل أحدًا خذله ولو أعانه جميع الخلق.

فعلىٰ المؤمن حقًّا الاستنصار بالله، والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، والتوكل علىٰ الله وحده، الذي يملك النصر وحده.

وقد نصر الله أنبياءه ورسله والمؤمنين في مواطن كثيرة، وخذل أعداءهم، وأعز الله المؤمنين، وخذل الكافرين.

وقد تكفل الله سبحانه بنصر أوليائه علىٰ أعدائه في الدنيا والآخرة كما قال

سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر: ٥١- ٥٢].

وقد أوجب الله سبحانه علىٰ نفسه نصر المؤمنين علىٰ أعدائهم كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧].

والله ﷻ قادر علىٰ نصرة دينه، فهو الذي نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وهو القوي القادر علىٰ كل شيء، ولكنه ابتلىٰ ويبتلي عباده بذلك التسليط، ليظهر من ينصر دينه وشرعه ممن يتولىٰ عن نصرته كما قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [محمد: ٤].

وقد بين الله لعباده أنه لا ناصر لهم دونه، ولا معين لهم سواه، وذلك لتتوجه قلوبهم له، وأكفهم بالضراعة إليه، فهو الملك البر الرحيم، الذي يملك الخلائق كلها، ويتصرف فيها كيف يشاء ويجري عليهم أحكامه القدرية والشرعية والجزائية، وهو مولىٰ المؤمنين وناصرهم، فليتوجهوا إليه وحده في جميع حوائجهم، فهو نعم المولىٰ ونعم النصير: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٧].

اللهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا

كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].(١)

***

(١) موسوعة فقه القلوب (١/ ٣٠٨/ ٣١٠). بتصرف.

الفهرس

تقديم بقلم محمد هاشم عبد العزيز ٧
طريقة صاحب الموازين:.. ٨
مقدمة صاحب الموازين.. ١٣

* * *

ميزان إبليس

شرح الميزان: ٢٣
أهمية التثبت وخطورته: ٢٤
مكانة التثبت في القرآن الكريم:....................................... ٢٥
أولاً: السلامة من الأخطاء:... ٢٦
ثانيـًا: تطهير المجتمع المسلم من المنافقين: ٢٦
ثالثـًا: الحفاظ علىٰ وحدة الأمة: ٢٧
الجن والإنس من الشياطين يتقاولون فيما بينهم زخرف القول: ٢٨
زخرفة الباطل طريقة وحيلة للشيطان:.................................. ٢٩
قضية النظر وأهميتها لطالب العلم ٣٠
- العلم هو الربط الصحيح بين المعلومات: ٣٢
نماذج لمن ربطوا ربطـًا غير صحيح: ٣٢
١- أبو جهل لعنه الله:... ٣٢
٢- ابن نبيِّ الله نوح عليه السلام:....................................... ٣٣

٣- عمرو بن العاص رضي الله عنه :..... ٣٤
٤- من يعطيهم الله المال والبنين وهم علىٰ باطل: ٣٥
- الخلق من الجن والإنس لهم وصف الطاعة ، كما أن لهم وصف المعصية. ٣٥
- الله سبحانه وتعالىٰ من وصفه الانتقام كما من وصفه الرحمة ٣٦
- الرد علىٰ الغلاة الذين يقولون: نحن لا نعبد الله خوفًا من عذابه ولا طمعًا في جنته! ولا نبالي بالجنة ولا بالنار ٣٨
- يريد إبليس أن يتعلق الناس بالرحمة فقط ولا يلتفتون لعقاب الله تعالىٰ ٣٩
- منهجية عدم التسرع: ٤٢
- إبليس معذب بعذاب المقت وليس بعذاب المخالفة ٤٢
الفارق الخطير بين آدم ، وإبليس هو الإصرار ، والإقرار ٤٤
عدم الاعتراف بالفضل لأهله: ٤٧
١- الحجاج بن يوسف الثقفي واحتقاره لسعيد بن جبير. ٤٩
٢- ابن أبىٰ دؤاد وتحقيره لعالم أنهىٰ الله علىٰ يديه فتنة خلق القرآن ٤٩
ضعف إبليس في المناظرة أمام ابن سمعون: ٥٠
اسم كل مخلوق مودع في نسمته معناه ٥٢
التنزل مع أمر الله ٥٢
فضيلة السجود..... ٦٠
العجب ممن يؤمن بالله خالقًا ويعترض علىٰ حكمه سبحانه ٦٠
هل حقًّا إبليس أفضل من آدم؟ ٦٢
التَّحْذِيرُ مِنِ الْبِدَعِ وَبَيَانُ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْجَادَّةِ ٦٩
ذَمِّ الْبِدَعِ وَسُوءِ مُنْقَلَبِ أَصْحَابِهَا ٧٠
الْأَدِلَّةُ مِنَ النَّظَرِ عَلَىٰ ذَمِّ الْبِدَعِ: ٧٠

الْأَدِلَّةُ مِنَ النَّقل عَلَىٰ ذَمِّ الْبِدَعِ الْأَدِلَّةُ..... ٧٦
مَا جَاءَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي ذَمِّ الْبِدَعِ وَأَهْلِهَا ٧٩
صور من رحمة النبي ﷺ ٨١

***

مِيزَانُ القِرَاءَةِ فِي لُغَةِ الكِلَاب

مكانة القصة ٨٧
مجالسة الصالحين..... ٨٧
الحث علىٰ مجالسة الصالحين:..... ٩٠
فضل العلم ٩٣
صاحب الموازين يبين الفارق بين كلام الرويبضة، وكلام أهل العلم والفقه والاستنباط..... ٩٤
من هم الرويبضة وما هي صفاتهم؟..... ٩٤
هل أتاك حديثُ (رويبضةُ) الإعلام؟!..... ٩٦
الرويبضة ينظرون لأهل الفضل علىٰ أنهم مساكين ٩٨
علامات تعظيم أوامر الله: ١٠٠
من تلزمه الأوامر الشرعية، ومن لا تلزمه: ١٠١
الناس في حكم الله القدري مقهورون، وفي الحكم الشرعي مختارون: . ١٠٢
أوامر الله التي كلفنا بها نوعان: ١٠٢
الرويبضة يقلبون الحكم علىٰ الأشياء ١٠٣
الرغبة فيما عند الله تعالىٰ:..... ١٠٥
التّرغيب في الجنّة ونعيمها:..... ١٠٦
التقيد بالأوامر والنواهي ١٠٦
قلب الرويبضة للألفاظ والمعاني:..... ١٠٧

أهل الصلاح لهم حال مع الله : ١٠٨
نظرة الملك لمن يصفيهم ١١٦
خدمة الله تعالىٰ أعلىٰ شرف ١١٨
قانون الاصطفاء والاختيار ١١٩
واضع المنهج هو الله ١٢٠
كفاية الله لخلقه ١٢٤
أولًا يكفينا القرآن؟! ١٢٥
كفاية الله لنا بالرزق: ١٢٦
حديث القرآن عن الرزق: ١٢٦
القرآن يربط بين قضية الخلق وقضية الرزق: ١٢٦
الرازق هو الله وحده: ١٢٧
شبهة من الرويبضة أن من كبرت سنه طُرِد ١٢٨
المقصر في خدمة الملك هو المطرود وليس من كبرت سنه. ١٢٩
لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا: ١٢٩
من عجز عن الخدمة لعذر لا يطرد: ١٣٠
من الذي يستحق الطرد؟ ١٣١
المخالفة مع الاستطاعة سبب في إنزال المرتبة ١٣٢
لا يجيد الاعتبار إلا أولو الأبصار ١٣٤
كيفية التفكر والاعتبار ١٣٤
لا يستطيع كشف الأحوال والمواقف إلا من كان بالله عارف ١٣٥
وقفة إيمانية مع حقيقة المعرفة بالله سبحانه وتعالىٰ: ١٣٨
لماذا لا تتجه القلوب إلىٰ الله؟ ١٣٩
المعاملة علىٰ قدر المعرفة: ١٤٠

أهمية المعرفة: ١٤١
قراءة المواقف محتاجة لقلب وعقل: ١٤٢
ولا يدرك حقائق اللغات إلا من تفضل الله عليه بالهبات. ١٤٤
لا يفهم معاني وأسرار النباح إلا من أسلم وجهه للفتاح. ١٤٧
إن بعض الكلاب يفضل علىٰ كثير ممن لبس الثياب. ١٤٨
إشارة خاصة بالكلاب. ١٤٨
إشارة عامة بالحيوانات والكائنات: ١٥١
تمييزوإدراك الإبل: ١٥٢

***

مِيزَانُ الْغَلَبَة

بيان الطغيان. ١٥٧
معنىٰ الطغيان في اللغة : ١٥٧
معنىٰ الطغيان في الشرع: ١٥٧
أمثلة علىٰ معنىٰ الطغيان في الشرع : ١٥٨
ما يحمل الإنسان علىٰ الطغيان : ١٥٩
النوع الأول : طغيان المال : ١٥٩
النوع الثاني : طغيان السلطة : ١٥٩
النموذج لطغيان السلطة : ١٦٠
طغيان السلطة ودعوىٰ الربوبية : ١٦١
ما تعنيه دعوىٰ الربوبية : ١٦١
من طغيان السلطة ظلم الناس : ١٦١
توضيح موقف الطغاة ١٦٢
القرآن يكشف سر العداوة: ١٦٣

التهم التي يوجهها أهل الباطل ليردوا بها الحق: ١٦٣
أعداء اليوم يرددون اتهامات من قبلهم: ١٦٥
التاريخ يعيد نفسه: ١٦٦
أهل الباطل يظنون أن الطائفة المؤمنة ضعيفة ١٦٨
الإتلاف يدخل فى دائرة الفساد والإفساد. ١٧٠
من سنن الله الثابتة إنزال العقاب في الطغاة في الدنيا: ١٧٤
- من يعتبر بسنة الله في الطغاة؟ ١٧٨
الابتلاء - بصفة عامة- سنة الله في خلقه ١٧٩
حكمة الابتلاء وفوائده: ١٨٠
للابتلاء حكم كثيرة من أهمها: ١٨٠
١- تصفية الصفوف: ١٨٠
٢- تربية الجماعة المسلمة. ١٨٠
٣- الكشف عن خبايا النفوس. ١٨٠
٤- الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة. ١٨٠
٥- معرفة حقيقة النفس. ١٨٠
٦- معرفة قدر الدعوة. ١٨٠
٧- الدعاية لها. ١٨٠
٨- جذب بعض العناصر القوية إليها: ١٨١
٩- رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات: ١٨١
المناظرات مع أهل الباطل ١٨٢
مناظرة إبراهيم قومه فى عبادة الأصنام: ١٨٢
مناظرة موسىٰ لفرعون. ١٨٧
موقف السحرة ١٨٩

حبس يوسف ١٩٦
حبس وحصار الرسول ﷺ ومن معه فى شعب أبي طالب ١٩٧
ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب: ١٩٧
صور من واقع الحصار الاقتصادي: ١٩٨
إن الله يريد أن يبلغ الظالم أعلىٰ مراتب الظلم حتىٰ لا يفلت من عقاب الله
..... ٢٠١
الله مظهر دينه ٢٠٣
- من هم الذين يستحقون هذا الوعد؟ ٢١٢
شروط التمكين وأسبابه ٢١٣
لوازم استمرار التمكين: ٢١٤
وأما ما يتعلق بأسباب التمكين: ٢١٤
صفات جيل التمكين ٢١٦
١- صفات إيمانية ٢١٦
٢- صفات سلوكية وأخلاقية ٢١٨
٣- الصفات الحركية والدعوية ٢٢٠
٤- الصفات النفسية ٢٢٣
الفهرس ٢٣٠

***